محمد مأمون نجا
مصطفى الشهابي

أبطال الوطنية في سويسرا

من الأساطير والأناشيد

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

أبطال الوطنية

في سويسرا

من الأساطير والأناشيد

تأليف

محمد مأمون نجا
المفتش العام للمدارس الاجتماعية

مصطفى الشهابي
بالمدرسة الثانوية العسكرية

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

مطبعة الاعتماد

شارع حسن الاكبر بعابدين بمصر . تليفون : ٤٥٥٤٥

فهرس الصور والرسوم والخرائط

فهرست

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد الله الذى أبدع الخلق والتصوير والصلاة والسلام، على سيدنا محمد النبي الأمى البشير النذير .

وبعد فانا نقص عليك من القصص ما فيه عبرة وبلاغ لعلك تكون من المهتدين .

كنا ثلاثة ضمنا مجلس واحد ، فأخذ الحديث يجرى بيننا مجراه ، وجعل هذا يتنقل من ثغر إلى ثغر والجو هادىء ، والسماء صافية ، والجد بادعلى الوجوه الصاغية . ولكن مالبث الحال أن تبدل عندما حط الحديث رحاله عند أفق الوطنية البعيد وجعـــل يخب صاعدا هابطا يتناول منها ما تهفو إليه النفس تارة وماتعافة تارة أخرى . وتسابق كل منـا ليدلى دلوه ويفصح عن رأيه . هنالك اكفهر الجو وتعالى الصوت ، وقال قائلنا : «لعمرى إنكم لاتستطيعون تبين مزايا

الناس ، إلا بقدار ماتشعه عليكم خفايا النفوس وماتنطوى
عليه الأطماع » هنالك ثار بركان ثانينا وقال والصوت منه متهدج
والأعصاب ثائرة ، يلوح بيده ذات اليمين ، وذات الشمال :
« أأنت تعرض بالناس وتخفى فى نفسك ماليس بالحق ، والله
إنك لأول من يسلط عليه سيفك ويلتصق بك ماتلصقه بسواك . »
وكنت والخصام محتدم أحملق فى رفيق مترفقاً واجهد الفكر
فيما يقولان فاحصا متبينا . فلما رأيت الشر باد فى النواجذ ، قلت
وأنا أكبت فى نفسى انفعالا شديدا وأحفظ وراء قولى سرا
خفيا : « أيها الأخوان : ان مافرط منكما لجد خطير وان ماتهرفان به لعن الحق بعيد ، فانتما بقولكما تبغيان ان تجعلا من الوطنية
والقومية تراثا لا يناله إلا أناس قد أختصهم الله بالفضل وأقوام
قد تميزوا بابراز الحجة ، والأمر فى الحق لا ينزل على رأى
أحد كما فإن الوطنية شعور مرهف . شديد الحساسية له حدان ،
اقطعهما حد الفرد لا حد الجماعة وبينهما برزخ يطول ويقصر
بحسب الظروف والأحوال ، وقد يجتازه الفرد إذا مرن على
جهاد نفسه فى ظروف ملائمة . والوطنية بهذا ليست جوهرة
لا يمكن للناس الاستحواذ عليها وانما هى لؤلؤة فى قلب كل

فرد لا يخترق الجسد شعاعها أو بالأحرى ضوءها الا اذا زالت وفنيت فيها اغشيته . عندئذ أنبرى لى أولنا وقال : « لقد فهمت لماما ما تريد أن تقول ولكنى أناشدك الصراحة ان تزيدنا بيانا فلعل فى ذلك شفاء لقلوبنا مما قد وقع فيها من سقم . » فادرت بصرى إلى ناحية الرفيق الثانى فاذا فى عينيه آثار التوسل التى فهمت منها مراده فوفرت عليه القول واسترسلت فى الحديث فقلت : « تسألنى افصاحا وبيانا والأمر ليس بمعضل فمن من الناس يهون عليه أن يغادر قومه إلى غير رجعة أو أن يعيش فى غير المكان الذى ألفه واستطاب هواءه وانغمس فى خير انتاجه وشارك من فيه شعورهم ومزاجهم ولغتهم حتى غدا لا يعرف لغير هذا المزاج منعشا ولا لغير هذه اللغة طريقا للتعبير عما فى نفسه من حزن أو سرور ولذة أو ألم ؟ فهو يتحسس طريقه إلى السعادة وسطهم ويبغى فيهم على ما ينتابه من حوادث الدهر أعوانا ونصراء ، وينظر اليهم نظرة المكملين له فهو وان تألم فيهم سعيد ، وان حرم من عطائهم متسامح غير حقود . ولكنه وهو حى يحس ويتألم ينتظر منهم مالا ينتظره من غيرهم فنفسه تثور اذا لم يجد منهم ما يساعده على الحياة ، لا بالاستجداء

والمن ، ولكن عن طريق تخويله فى وسطهم مجالا يكد فيه ويسعى لكسب رزقه ، من غير أن يعتدى عليه معتد ، أو أن يحد من نشاطه باغ بغير حق أو أن يغتصبه مافى يده ظالم أثيم. فاذا هو وجد فى قومه الحماية والعدل وضمان الحقوق فإن حد الفرد فيه يرجع إلى الوراء رويداً رويداً حتى إذا أقترب من البرزخ اشتدت به الهواجس: أيمعن فى السير وهو مطمئن واثق من أنه سيكسب أكثر مما يخسر أم ينكص على عقبيه لأن هذه الثقة ليست فى نفسه قوية وليست البراهين عليها ناصعة جليه! هنا لك يقوم صراع فى نفسه : صراع لايلبث أن يتبدد إذا كانت الجماعة فى الحق لاتلين ، وفى العدل لاتهن ، وفى توزيع الحقوق والواجبات لاتمارى ، ولا تخاف فى دأب ويقظة . وكذلك يتراجع حد الفرد حثيثا حتى يجتاز البرزخ آمنا مطمئناً ويتصل بحد الجماعة فيضفى عليه من حرارته قوة ومن عزيمته مضاء ، يغنى فيه ، ويعيش معه من غير ان يفقد حساسيته لكل مايصيبه فى المجتمع من خير أو شر . فحرى بالجماعة ان تحرص على هذه الحرارة وهذا المضاء أن لايخبوا ، فما قوة المجتمع ومضاؤه إلا بقوه الفرد وعزيمته . فالفردية وان اختفت معالمها للعين

العارية فى الجماعة المتاججة وطنية فان وراءهذا المظهر شخصية الفرد وحيويته وغرائزه التى لم تسلم قيادها للجماعة إلا وقد اطمأنت على سلامتها وحمـــايتها وتساويها مع غيرها فى كل مايصيب الجماعة من نفع أو ضر.

وفى وقفة من وقفات الحديث لحظت صمتا رهيباووجوما عجيبا فلما انتهيت من قولى إذا بصاحبى يقولان دفعة واحدة، كأنما قد مر بهما خاطر واحد: «فهمنا ماقلت وانه للحق الذى يجب أن يعلن للناس ومالك لاتكتب فى ذلك حتى ينكشف للكثير من الناس هذا المعنى للوطنية؟». فقلت: «إن شاء الله أنا فاعل.»

وللبر بهذا الوعد جعلت اجيل بصرى، فى أى طريق أسلك لأظفر بهذا الشرف الكبير، ثم ارجعت البصر باحثا منقبا فى صحف التاريخ، لعلى أقف على قوم ممن وعت هذه الصحف اخبارهم، فاجعل من سلسلة أحاديثهم شرحا واقعيا، لما قد صوره ماسبق من البيان.

وفيما أنا فى هذه الأفكار غارق وفى تلك الصحف سابح إذ جاءنى زميلى وصديقى الأستاذ مصطفى الشهابى يعرض على بعض ما أعجبه من أساطير الامة السويسرية ويكشف لى عن أمنيته

فى أن ينشر ذلك للناس ، كأنما كان على موعد منى . فقلت له بتلهف « قد يثاب المرء رغم أنفه ! » وأخبرته ما كنت فى حيرة من أمره . هنالك بدت رغبته فى أن نضع كتفينا فى وثاق واحد وأن يشد أزره أزرى فعقدنا الخناصر وأحطنا الأسانيد بالأساطير وجعلناهما كلّا واحدا فاذا هذا الشطر من تاريخ هذا المجتمع من الانسانية يبين فى غير مواربة . الوطنية الفردية فى أشد أدوارها قوة ، وتراجعها لتجتاز بوغاز المخاوف فى أوضح صورها ثم صراعها قبل أن تفنى فى الجماعة بأبلغ مظاهرها ودخولها بعد ذلك فى الجماعة بقوتها ، ووصولها إلى حيويتها وحيوية الجماعة معا . ومن ثم وجود الحياة الديموقراطية ، بأقرب مايكون إلى حقيقتها فى هذه الأمة السويسرية دون سواها من الأمم .

ولما تجلى لنا ذلك بالفحص والبحث والمقارنة لم نجد لنا عزما أن نعدل بتاريخ هذه الأمة غيره . فاستخرنا الله ان نجعل منه مشكاة يستهدى بها الناس الطريق العملى للعيش معا جماعة وافراداً ، عيشة يكون فيها الفرد نواة الجماعة والجماعة بوتقة الفرد فلا يطغى هذا على تلك ولا ترهق هذه ذاك. عيشة تزخر

بالحرية والاخاء والمساواة بكامل معانيها وتلك لعمرى هى الديموقراطية الحقة .

ولقد كانت الفردية إبان سورتها وضائقاتها خلال أدوار تاريخ الأمة السويسرية تتلفت ذات اليمين وذات الشمال متلمسة من يأخذ بيدها ضد الظلم السائد وينتشلها من وهدة الجور المخيم فلا تجد لذلك طريقا غير التآخى فى التضحية والتساند فى المهالك ، وهكذا برز تحالف المقاومة بين أفراد إقليم واحد ثم اتسع ليضم اقليما ثانيا وثالثا ورابعا حتى كانت العصبة التى طال كفاحها ضد الحكم الهابسبرجى الظالم إلى ان انتهى عام ١٤٩٩ م حين اصبحت سويسرا دولة حرة .

ولسنا هنا بصدد الاشادة بقوة الفردية ولا بأهمية تساندها فى الجماعة، فقد قدمنا لذلك ذكرا، ولكن المهم هنا هو أن الوثائق التى سجلت معظم التحالفات، مفقودة والشخصيات التى سعت فى عقد هذه التحالفات والتى مثلت الأقاليم فى تكوين العصبة مجهولة غير معروفة على التحقيق ، والمعروف المقطوع بصحته هى الوقائع والانتصارات وشروط الاتفاقات المعقودة بين المنتصر الظافر والمنهزم الخاسر . والواقع ان هذا صدع كان

لا بد من جبره قبل أن تصبح القصة محبوكة الأطراف عذبة المنهل ، فهل ضن علينا تاريخ الأمة السويسرية بجبر هذا الصدع ؟

لا ! بل أغدق عن طريق الأساطير الذائعة التى وضعت فى الغالب لتمجيد البطولة الفردية فى أروع مظاهرها مركزة ناحيه خاصة من هذه البطولة حول اسم خاص فى ظرف خاص .

وهذه الأساطير ببطولاتها وان يكن لها مثيلات فى تاريخ بلاد أخرى غير سويسرا إلا أنها تتميز فى سويسرا بشخصياتها وتلازم هذه الشخصيات بالأقاليم التى ظهرت فيها . ولا يعنى تشابه هذه الأساطير بأخرى فى بلاد غير سويسرا إلا أمراً واحداً هو دخول بلاد كثيرة فيما دخلت فيه سويسرا من كفاح ضد الظلم والأعنات ، حتى تبلج ماوقر فى النفوس البشرية من جلائل الصفات ، وما أودع فيها من خبايا الأسرار .

والأساطير وإن كانت لاتقوم مقام الحقيقة التاريخية إلا أنها كما أسلفنا تسد نقصاً لاتكمل الحقيقة الا به ، فضلا عن أنها خيال ابتداعى يزين جيد الحقيقة بهالة من لؤلؤات البطولة والمجد ، ويعلل الحوادث بعلل مرجعها إلى النفس البشرية وما جبلت عليه من الطباع الثابتة التى تثير فيها الاعجاب ،

وتحفزها إلى التغنى بمحامد الابطال الأفذاد والتشبه بهم فى منحاها ومسلكها .

ولا بد للخيال الابتداعى الذى تقتضيه الاسطورة من عبارة قوية لرسم صورته وأسلوب بليغ لحبك أطرافه حتى تأتى الاسطورة جذابة للعين ، خلابة للأذن ، لا يملها النظر وإن طالت رؤيتها ولا تمجها الاسماع مهما تكررت روايتها .

وبذلك تكون الاسطورة فى الرواية التاريخية هامة من وجهين : الوجه الأول أنها تسد نقصا فى الاسانيد المسطورة المحققة ، والوجه الثانى أنها تفسح المجال للخيال الذى يخفف كثيرا من وطأة التتابع المجهد للفكر من حيث استقصاء العلة والمعلول وتبين السبب والنتيجة واستجلاء الترابط بين الحوادث ، وذلك فضلا عن رواء العبارة وروعة الأسلوب التى تجعل الرواية التاريخية حلوة طلية . وفى تاريخ سويسرا كما شئنا ان نورده فيما يلى أسانيد حيث الوثائق مسطورة ، وأساطير حيث الأسانيد معدومة ، محدثين من هذه وتلك مزيجا حاولنا فيه ماوسعتنا الطاقة الترفية على القارىء بزايا الاسطورة ومجانبين بكل مافينا من جهد ان نطمس الحقيقة

الثابتة لتتوفر للقارىء فرصة الاستمتاع بالخيال واجتلاء الحقيقة فى وقت واحد .

وانا لنتوسل بعد ذلك إلى الله سبحانه وتعالى ،أن يوفقنا جميعا إلى مافيه النفع لمواطنينا ، والخير لوطننا مصر فى ظل جلالة مليكنا المحبوب فاروق الأول أعزه الله ، إنه على مايشاء قدير ، والحمد لله أولا وآخراً .

محمد مأمون نجا

تمهيـــد

الوطنية والقومية ــ الوطنية والعقيدة ــ الوطنية قوة وضعفا
عوامل القومية ــ القومية السويسرية

القوميةوالوطنية لفظان يتوافقان مدلولا ويفترقان شكلا
أما التوافق فى المدلول فمرجعه تشيع الفرد لجماعة تعصمه من الهضم، وتقيه الغيلة،وتمنعه من المسغبة، تؤويه إذا عز المأوى، وتطعمه إذا شح الزاد،عزه من عزها وذله وليد تفككها وانحلالها.
جماعة انتثرت أفراداً من أصل بشرى واحد واجتمعت كتلة فى لغة واحدة ، جماعة توثق الأواصر بين أفرادها معتقدات شائعة بينهم ، وتربطهم ببعضهم البعض حيوية لا تتحق لفرد منهم بغير الاعتصام بحبل الجماعة،وفنائه فيها،وصيانتها له عزيزاً لا يخاف ظلما ولا يخشى جوراً، فى ظل قانون يرتضيه العرف وتدعمه التقاليد،قانون يسوى بين الناس ويعدل بينهم فى التكاليف والواجبات ،قانون هدفه صيانة الحريات الاجتماعية كاملة غير منقوصة فى سياج الأرض التى تعيش عليها الجماعة ، وتأمينها على أملاكها ومتاعها ، فهى بذلك مهما اتسعت رقعة بلادها

أمة واحدة ، ألفت بين قلوبها صلات الدم والتراحم وحزبتها لغة واحدة ومعتقدات شائعة ، وتجانس فى أحوالها المعيشية وعاداتها وطباعها وميولها ؛ لا ترهق أفرادها فى حياتهم ذلة ولا تعنتهم فى وطنهم مسكنة : وأما الافتراق فى الشكل فأصله النسب إلى لفظين مختلفين: وطن وقوم : ويعنى أولهما المكان وثانيهما عصب الفرد ونصراؤه ولما كان لكل قوم مكان ، فيه ثواؤهم ومستقرهم، فقد ارتبط المكان بالعصبية، وهذه بذلك حتى أصبح الانتساب إلى قوم أو إلى وطن رمزاً لكليهما ، إذ لا وجود لقوم بلا مستقر ، ولا لوطن بلا قطان .

وإذا كانت الوطنية أو القومية أو هما معا تشيع لمعنى خاص فهى فى الواقع شعور قوى يبلغ حد العقيدة ارهافا وسطوة ، ذلك لأن مبعثهما ومرماهما واحد، فالغرائز المتأصلة فى الجنس البشرى كحب الحياة والسيطرة ، والتملك ، وحرية التصرف كلها تحفز الفرد على إشباع غريزته الاجتماعية فيختلط ويتزاوج وتتكون الأسرة ثم تكبر هذه وتنمو حتى تتكون منها جماعة كبيرة « فأمة » هدف أفرادها جميعا التعاون لتحقيق السعادة فى الحياة الدنيا . ولما كانت الحياة تأبى إلا أن تفجأ من فيها بشرورها

ومصائبها ، فقد تقوت فيهم غريزة الخوف وعاطفة الرجاء ، وراح الانسان يتلمس الخلاص من الشرور التى لا قبل له بها ويطمع فى أن يتبدل بها الخير عن طريق عبادة ما ظنه مصدر شر أو محط رجاء وجعل يتدرج فى معبوداته تبعا لاتساع إدراكه حتى عبد الخالق المدبر ، يسجد له تضرعا وخيفة . ثم ما لبث أن أدرك أن هذه الحياة الدنيا ليست إلا طريقا إلى حياة أبدية ، هى النعيم المقيم أو العذاب الأليم ، فاشتد لذلك تعلقه بمعبوده وزاد تقربه إليه خوف العذاب، وطمعا فى الثواب فكأن طلب النجاة من شرور الدنيا والاستمتاع فيها بأوفر قسط من السعادة ارتبط ارتباطاً وثيقا فى نظر الانسان بمصيره بعد الموت وبخاصة نجاته من الجحيم فى الآخرة ، وذلك تأويل بلوغ الوطنية مبلغ العقيده فى الارهاف والسطوة ، فهذه تؤمنه على ماهو عزيز عليه فى الدنيا، وتلك تصلح حاله فيها وتجنبه مزالق الجحيم، ثم تسلمه إلى جنة النعيم .

والوطنية تختلف قوة وضعفا ، فتكون قوية إلى أبعد حدود القوه إذا أحاطت بالجماعة أخطار تهددها فى أعز مثلها وأقدس أساليب حياتها ونظمها ؛ وتنذر بشر مستطير يجتاحها نفسا

ونفيسا ويأتى عليها عَدَداً وعُدداً وبخاصة إذا طال أمد هذه الأخطار ، وطال تبعا لذلك أمد التضافر على دفعها ، وكثرت بذلك التضحيات فى سبيل الحريات والتقاليد ، وفى سبيل الاحتفاظ بموارد العيش فى أرض الآباء والأجداد فان ذلك يدعو إلى التماسك والتساند ، وبذل النفس والنفيس لغرض واحد مشترك ، بما ينسى الأفراد وجودهم المنفصل ، ويثير فى نفوسهم عقيدة « الجماعة قوة وعزة والفرقة هوان ومذلة » ويجعلهم يؤمنون إيمانا صادقا بأن خيرهم فى اجتماعهم كالبنيان المرصوص وفشلهم فى تفرقهم أيدى سبا .

وتكون القومية ضعيفة إذا نكبت الجماعة بالتفكك والانحلال ، فلا هى قادرة على أن تهيء للفرد سبل الاطمئنان على نفسه وأمواله ومعاشه ، ولا هو قادر على أن يركن إليها فى ردع المجرمين ، ونشر المساواة ، وتوطيد الأمن ، فيذهب كل واحد مذهبه لحماية نفسه وماله ، وصيانة ما فى يده ، والاستزادة من الخير على حساب الغير ، فتقوى روح الفردية والاسترابة والتشكك فى نوايا الغير ، ولا يكون هناك محل للثقة والتعاون من أجل هدف مشترك .

وكذلك كانت الوطنية مفتقرة إلى عوامل تهبها الحياة وتتعهدها بالغذاء لتقوى وتكبر ، ويشتد منها الجسد ، فاللغة والعقيدة وصلة الدم وتشابك المصالح كلها تربة صالحة لقيامها والمساواة فى الحقوق والواجبات والقانون العام لصيانة هذه الحقوق ، ودفع الظلم ، وإحقاق الحق ، والاشتراك فى كافة الحقوق السياسية والمدنية ، والتضامن فى دفع الكوارث والملمات ، من جوع وعرى ومرض فى الداخل ، أو اعتداء من الخارج ، كلها ساحات لترعرعها ، وازدهارها وبلوغها أعلى درجات الفتوة والكمال

وليس من الضرورى اجتماع كل هذه العوامل لقيام الوطنية فقد يكون أحدها أو فئة منها مفقودة ، ومع ذلك تقوم الوطنية وتترعرع ، وتزدهر ، وتقوى إلى حد كبير ، وآية ذلك ما دليه سويسرا التى لم تتوافر لها وحدة اللغة ، ولا وحدة العقيدة ، ولا وحدة النظم المحلية ، سواء أكان ذلك من الناحية السياسية أم الاجتماعية أم الاقتصادية ومع ذلك فهى أمة تشبع أفرادها بالروح الوطنية العالية ، وتفانوا فى سلامتها وصيانتها ، تفانيا خلق منهم أبطالا بواسل فى أمة باسلة ، بما يسجله لهم التاريخ

بالفخر والثناء ، وقد يبدو هذا الأمر فى سويسرا غريبا ، وهو فى الواقع كذلك ، لأنه لا يساير الناموس العام لنشأة الوطنية ولكن هذه الغرابة لا تلبث أن تتضاءل وتزول إذا أدركنا أن الجماعة المتباينة جنسا ولغة ودينا ونظما قادرة على التماسك بعضها ببعض إذا تشابكت المصالح وأحاطت بها الأخطار من ناحية واحدة ، وهب الكل يذودون عن الحياض ، واجتمعت الغايات كلها فى مقاومة العدو ، وتركزت الجهود المشتركة فى دفع أخطاره ، والقضاء عليه وبذلك تزول آثار التباين ، وتترجح نتائج التآزر والتعاون ، وتقوم الأمة كما حدث فى سويسرا فعلا وسنورد نبأ ذلك فيما يلى من الفصول .

الباب الأول

أصل الأمة السويسرية

تمدنا الأساطير (القصص) بكثير عن أصل السويسريين والغريب فى الأمر أن الوطنيين من أهل البحث فى الآثار السويسرية قد أقاموا النظريات التى نسجها خيال أولئك الناس حول أصلهم ، لأنهم لم يجدوا فى الحقائق الثابتة مايبرهن على ذلك الأصل والظاهر أن السويسريين ، على حد هذه الأقوال انبعثوا من أقصى الشمال فى أوروبا حول بحر البلطيق وجابوا الأصقاع حتى استقر بهم النوى فى وديان جبال الألب الوسطى .

ولقد طبقت شهرة الأساطير الآفاق حول نشأة سويسرا واستقلالها من قديم ،وقدرلها أن تبقى حتى تناولها القرن التاسع عشر بالنقد الدقيق فجردها مما قد تستند إليه من أصل تاريخى حق ، وعلى هذا فإن قصة وليم تل ورميه للتفاحة التى وضعت فوق رأس ابنه بالسهم ، لم تكن سوى أسطورة من أساطير

الشجاعة المعنوية والحسية ، وأن قصة قبعة نائب الأمبراطور وتعليقها فى سوق التدروف Altd orf لم تكن إلا إضافة حديثة العهد إذ لم يوجد اسم جسلر بين أسماء نواب الامبراطور فى الأقليم ، وإذا كان هناك وجود حقيقى لوليم تل فإنه لم يكن من ذوى المكانة السياسية مطلقا [١] . وكذلك قضى النقد بلا رحمة على ما هو أرجح وأهم من ذلك كقصة « فرست (Fur t) ، وملشال ، (Melchthal) وستوفاشر (Stouffacher) فى ساحة روتلى (Rulti) ولو كان لهؤلاء الرجال ، وما اشتهروا به ، من وجود حقيقى ، فالأرجح أن يكون ذلك فى مكان آخر ولمناسبة أخرى .

ونظريات علماء الآثار فى نشأة سويسرا خيالية أسطورية معا ، بل هى مجردة مما لهذه من الروعة وتختلف فى الشكل أحيانا ولكن هدفها كان دائما الوصول إلى أن أقاليم الغابات ، وهى أقدم ولايات سويسرا ، كان لها أصل عنصرى خاص ، يميزها عن بقية ألمانيا إذ كان يعمرها كما يزعمون نرويجيون وسويديون (اسكندنافيون) هجروا موطنهم الأول خشية على حرياتهم أن

(١) لهذه القصة فى تاريخ سويسرا مثيلات فى تاريخ فنلندة والدانمارك وغيرها .

تسلب ، وأقسموا أن يحافظوا عليها ، فى موطن جديد .

وكان هؤلاء يسمون « الهيلفت » ولما خضعت سويسرا للرومان أصبحت هيلفاسيا ولاية من ولايات الامبراطورية الرومانية . وقد شهدت سويسرا من القرن الرابع الميلادى الغارات العديدة التي شنتها عليها القبائل الجرمانية وكان الألمان وهم من أهم هذه القبائل قد أقاموا فى الجنوب الشرقى من البلاد ومن تلك القبائل البورغانديون وقد استولوا على غربى هيلفاسيا وعلى قسم من الأراضى الفرنسية حاليا . ولم يطل عهدهم حتى أصبحوا رومانيين بسبب احتكاكهم المستمر بالشعوب الغالية الرومانية . وخلال القرون الوسطى نشأت الظاهرة التاريخية لتعدد اللغات فى سويسرا وتكونت الجماعات الحضرية والبدوية متمتعة ببعض الاستقلال الاقليمى وإنه فى الوقت الذى كانت المدن تنمو فيه وتنتقل السلطة الحاكمة فيها إلى أيدى طبقة الأغنياء أو الأفراد بقيت سويسرا والسلطة الحاكمة فيها هى الشعب نفسه .

وإن فقر تلك البلاد نسبيا وقتئذ وصعوبة السيطرة عليها ولا سيما أجزاؤها الوسطى وما يقع عند منابع الرين والرون

كل ذلك حال دون خضوعها تماما للنظام الاقطاعى .

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن إلمام السويسريين بالممرات والأودية دفع الامبراطور فردريك الثانى (١٢١٢ — ١٢٥٠) إلى منح مراسيم تضمن حريتهم وتعافيهم من أى نظام إقطاعى وأن هذا التقليد استمر يراعيه امبراطرة الدولة الرومانية المقدسة حتى يقوم أبناء تلك البلاد بحراسة ممر سنت جوثار الذى يوصل بين ألمانيا وإيطاليا .

وهذه القصص وأشباهها خالية تماما مما يدعمها ، ولقد برهن البحث الحديث على أن أقاليم الغابات لم تكن إلا جزءا من الإمبراطورية الرومانية المقدسة كغيرها من الأقاليم المجاورة .

وعلاوة على ذلك فقد كانت تلك الأقاليم تدين بحقوق مختلفة وفى فترات متعددة لعدد من السادة الروحانيين والعلمانيين على السواء ، وواصلت سعيها للخلاص من سلطة هؤلاء الأمراء الإقطاعيين وللاستحواذ على حق التبعية المباشرة للامبراطورية وهذا هو السعى الذى تتوج فى النهاية بأول تكوين للعصبة الديدية .

الفصل الأول

مهد الحرية

لعب الاتحاد السويسرى فى التاريخ الأوربى دورا يفوق كثيراً مدى رقعته وعدد سكانه، وهو يقع وسط شعوب غرب أوروبا عند اتصال العناصر الألمانية بغيرها من ذوات اللهجات المحلية المتباينة ، حيث توجد أهم المراكز السياسية والحربية وهذا المركز الجغرافى جعل بقاء سويسرا أمرا حيويا من الوجهة الدولية . هذا والتاريخ السويسرى ينفح المؤرخ فى نفس الوقت بأكمل الدساتير الاتحادية وأطولها عمرا . وتدبره يكشف عن قدرة الجماعة المتباينة نشأة ، ونظما ، وجنسا ، ولغة على التماسك ، إذا التأمت مصالحها ، وتهددتها الأخطار من كل جانب . وقصة الاتحاد ونشأته فى القرن الرابع عشر قصة بالغة الروعة ، بل هى أروع أقاصيص التاريخ .

* * *

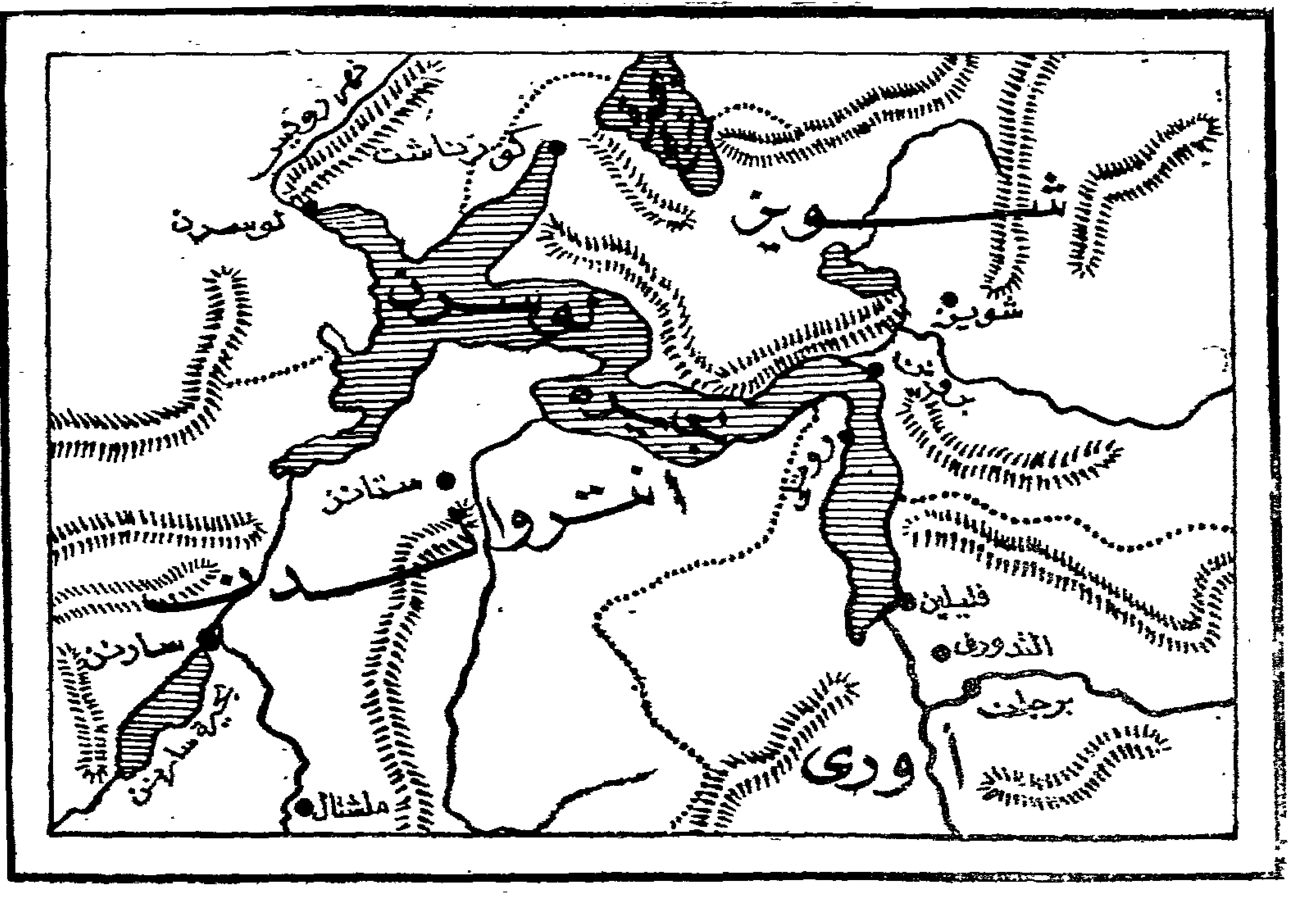
عند أسفل جبال الالب الوسطى (الحائط الطبيعى بين المانيا وإيطاليا) ، وفى الناحية الشمالية منها تقع بحيرة غائرة

متشعبة الأطراف ، هي بحيرة لوسرن (Lucerne) التي تتفتح لثلاثة وديان ، هي الصلة الوحيدة بينها . ويفصل بعضها عن بعض جبال عالية شديدة الانحدار ، ترويها أنهار سريعة الجريان ومجار مائية عديمة النفع والأهمية . وتنقسم ، كلما زادت الجبال ارتفاعا ، إلى وديان ضيقة مغلقة ، تعلوها مرتفعات كبيرة ، تغطيها إلى خط الثلج الدائم مراع ، وغابات ، وصخور عارية ، مما لا يسمح للزراعة إلا بقدر ضئيل ، وحتى من هذه الناحية فإن الوديان لم تلحظها الطبيعة بكثير من العناية

هذا هو وصف إجمالى لما عليه وديان سويسرا عامة وأورى (Uri) وشويز (Schwyz)[1] وانترولدن (Unterwalden) مهد الاتحاد السويسرى خاصة .

وهذه الطبيعة قد جعلت الأنعام مصدر الثروة الرئيسى فى تلك الوديان : صيدها وتربيتها ، ومن ثم كان الرعاة يفوقون الصناع والزراع عددا . كانت الانعام وصناعة الألبان وصيد الحيوان والأسماك مصادر الثروة الطبيعية فى هذه الأقاليم القاسية ، المتغيرة المعالم ، التى لا يمكن أن يعيش بها إلا أناس

(١) هو الاسم الذى اشتقت منه كلمة سويسرا



بحيرة لوسرن وحولها الولايات التي تكونت منها العصبة الأولى للاتحاد السويسري.

شديدو المراس ، يقنعون بالقليل ، ويستمسكون بالبساطة .
فكل فرد ينبغي له أن يسد حاجياته بنفسه ، وليس له أن يعتمد
على شيء عند الحاجة إلا على قوته ومهارته وهكذا كان مقضياً على
أهل هذه الوديان أن يكافحوا من أجل العيش كفاحا مستمرا مع
الطبيعة التي كانت محط رجائهم لما يأملون ، ومصدر فزعهم مما
يحذرون والتي كانت تحفزهم إلى الحرص الشديد على كل
ما يملكون وتضطرهم إلى الدفاع عنه بلاهوادة ، إذ هم لا يطيقون
أن يتهددهم أو أن يسلبهم اعتداء جار أو تعنت شريف ، شيئاً مما
قنصته أيديهم من فيضانات جائحة أو سيول جارفة أو عواصف
هائجة أو خلجان مائجة ، وإذ هم على استعداد إذا دعت الضرورة
إلى خوض غمار حرب هوجاء ضد الإنسان كما هم يخوضونها
ضد الطبيعة ، وهم يحسون بفضل هذا الكفاح ، أن كل شيء
مرهون بجهادهم ومثابرتهم من ناحية — وذلك جعلهم معتدين
بأنفسهم — وأن كل شيء متوقف على إرادة الإله العلي القدير
من ناحية أخرى — وذلك جعلهم صابرين متدينين .

ولما كانت الحياة في خلاء حقول الالب تبنى أجسامهم
وجلادهم للطبيعة يقويها ، ومصدر معايشهم يجانس بين عاداتهم

ويصبغ عليهم نوعا من الهدوء العقلي ، الذى يحفظ عليهم فى الأجيال المتعاقبة تراثا من العواطف والذوق والاتزان ، يستمدونه من طول أجل ، وبساطة عيشة ، وضآلة رزق ، فقد تولدت من كل ذلك فيهم روح المساواة والأخاء ، على حين أن الأفكار الجديدة ، التى كانت تشيع بينهم ، كانت قليلة واهية الاثر ، تركى بينهم مجافاة روح التجديد مددا ، تطول فيهم عن غيرهم من الناس ، كما أن حرمانهم فى الأيام الخالية من كافة وسائل الاتصال بالخارج — باستثناء الدروب الجبلية وركوب البحيرة الهائجة الأمواج — قوى فيهم روح التماسك من ناحية ، والأخاء من ناحية أخرى . ومن فيض إخائهم وتماسكهم المشوب بعزلة الفرد نمت الشجاعة الاستقلالية فى الأفراد ، وهكذا يبدو كأن العناية الالهية قضت بأن تكون هذه الوديان الثلاثة الصغيرة بتشكيل أراضيها وعادات أهلها مهدا للحرية ومعقلا لها فى وسط أوروبا .

وقد كانت أورى تتمتع منذ منتصف القرن التاسع الميلادى بسيادة دير للراهبات بزيورخ ثم قضى الأهالى على هذه السيادة بالحصول من الامبراطور فى الثلث الأول من القرن الثالث عشر

على الاعتراف باستقلالهم عن أى سلطة غير سلطة الامبراطور وقد ادعت شويز وأونترولدن مثل ما كان لأورى ، دون أن يكون لهما على ذلك دليل ، ومع ذلك فقد اعترف لهما الامبرطور بما كان لأورى ، وكان لزاما أن يصطدم أهل هذه الأقاليم الثلاثة عند محاولتهم مباشرة الحكم الاستقلالى بجارهم القوى كونت هابسبرج (Hapsburg) فى سوابيا (Swabia)[1]. غير أن هذا الاصطدام تأجل عندما جاءت الأنباء بأن رودلف الثالث الهابسبرجى قد انتخب امبراطورا فى أواخر القرن الثالث عشر إذ أن هذا الانتخاب أكسبه سيادة على الأقاليم الثلاثة ولكن أهلها كانوا على استعداد أن يتنكروا لسيادته عليهم كأمير لسوابيا . وعندما بدأ الكفاح بين الطرفين كان التكافؤ بينهما مفقودا ، لأن الأمير الهابسبرجى كان له من سلطانه كإمبراطور ، وفى قوته كأمير لعدة ولايات ، ما يسنده فى تأييد مطامعه الأسرية ، إلا أن همة رودلف توجهت نحو النمسا لاكتسابها وتثبيت أقدام أسرته فيها ، رغم أنه لم ينفض يديه كلية من

---

(١) كانت تشمل المقاطعات الألمانية المعروفة الآن باسم ورتمبرج Wurtemberg وبادن Baden والجنوب الغربى من باڤاريا وأجزاء من شرق سويسرا .

أطماعه فى سوابيا . وكان من نتيجة انشغاله بأمرين فى وقت واحد أنه لم يستطع تحقيق غرضه فى سوابيا، وكذلك كان احتلال النمسا استقلالا لسويسرا .

وقد قدر فلاحو بحيرة لوسرن بعين الجد الخطر المحدق بهم عام ١٢٩١ ، أي بعد موت رودلف مباشرة ، فكونوا العصبة الأولى التى لا يعرف لغيرها من قبل أثر كتابي محفوظ، ووثيقة العصبة هذه، التي عرفت باسم ميثاق برونن (١) The Pact of Brunnen ، تستحق أن نقتبس منها ما يأتى :

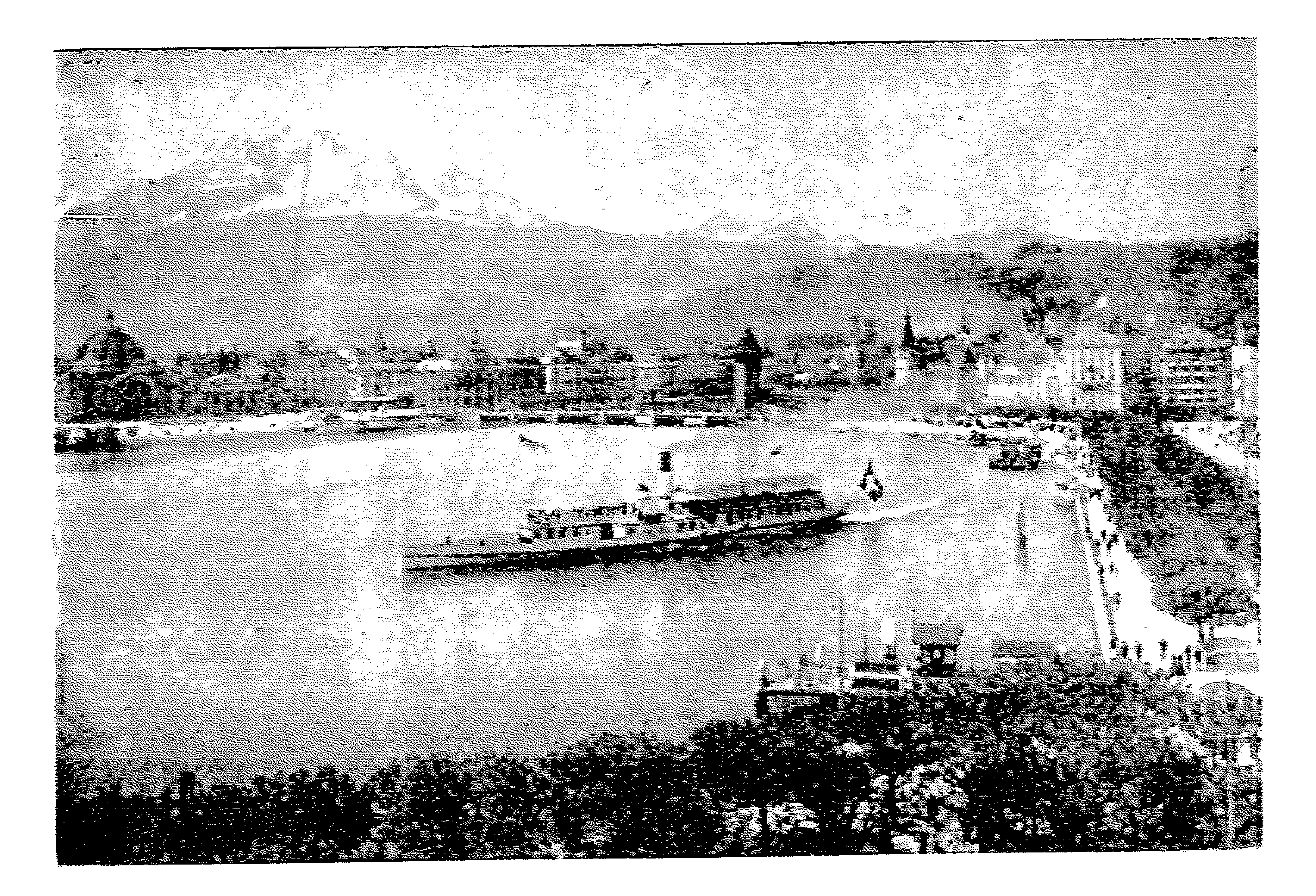
«ألا فيعلم الناس ، أننا ، نحن أهالى وادى أورى وجماعة وادى شويز والجبليين من الوادى الأدنى (إنترولدن) ، دفعاً لشرور الزمن ، قد اتفقت كلمتنا وارتبطنا بالمواثيق أن يساعد بعضنا بعضا ، وأن يدافع بعضنا عن بعض بكل ما أوتينا من قوة وجهد ، بنفوسنا ونفيسنا ، داخل حدودنا وخارجها ، كل على نفقته الخاصة ، ضد أى عدو تحدثه نفسه بالاعتداء علينا فرداً أو جماعة . هذا هو العهد القديم بيننا ، ومن كان له

(١) عقد ذلك الميثاق فى اجتماع سرى بجروتلى Grutli أحد المراعى الألبية المطلة على بحيرة لوسرن .

سيد فليطعه طبقا لواجبه،وقد قررنا ألا نعترف بقاض حصل على وظيفته بالثمن ، أو كان من غير مواطنينا القاطنين بيننا . وكل خلاف بيننا سيقوم بفضه عقلاؤنا . فإذا رفض أحد قراراتهم ، فسيضطرهم بقية أعضاء الاتحاد إلى الاذعان لها . وكل من قتل عمدا يقتل ومن آوى مجرما أو تستر عليه فالنفى من ودياننا جزاؤه وكل من أوقد نارا للحرب عن سوء نية للتخريب والدمار أوغير ذلك فقصاصه الطرد من حماية الوطن ، ومصادرته فى كل ما له من حقوق كمواطن حر ، فإن أجاره شخص آخر فعليه أن يعوض الخسائر . وكل من سرق متاع غيره . أو تعرض لآخر بما يضره فعليه تعويض ما سرقه أو أتلفه مما يملكه بيننا . وعلى كل أمرىء أن يعترف بسلطة القاضى الأعلى فى كل من الوديان الثلاثة . وإذا تناجزت فئتان ، وأبت إحداهما الحل المعقول عقلا بغيا وعدوانا ، فالاتحاد يقاتل التى تبغى ، وينصر الطائفة الأخرى وليكتب الله بمشيئته لهذا العهد الأبدية لصالحنا العام . »

والظاهر من هذه الوثيقة البسيطة فى مبناها ومرماها ، أنه قد تكونت على أساسها عصبة من الوديان الثلاثة ؛ مهمتها

ميثاق العصبة



لوسرن مهد الحرية

دفاعية ، وتنظم لمدى معين قانوناً جنائياً عاما بينها ولعل ذلك
لأن ارتباكا كبيرا كان يحتمل أن يقع لو أن كل ولاية وقّعت
عقوبات متباينة تتيح للآثم أن يحتمى بإحداها من الأخرى .
وفى نفس الوقت لم تتكون بتلك الوثيقة حكومة اتحادية، إذ أنه
لم يذكر شىء عن أى مجلس على أية صورة يشرف إشرافا عاما
على المسائل المصلحية المشتركة. ناهيك بمسألة الضرائب وغير
ذلك من الأمور العامة. كما أن الحرب كانت تجرى على الحساب
الخاص ومن ذلك يبدو واضحا أن وثيقة هذه العصبة لم تكن
إلا نحت جماعات قروية ثلاثة فى وجه خطر محدق ، غير ناظرة
للمشاكل المستقبلة التى أُمل أن تحل نفسها بنفسها وعسى أن
تكون الفقرة الخاصة بطاعة الأمراء دليلا على أن العصبة
كانت تهدف إلى توقى الظلم ، لا إلى طلب الاستقلال . ولكن
سرعان ما أقامت الحوادث المتتابعة الدليل على أن الاستقلال
وحده هو الوقاية الوحيدة من شرور الظلم والعدوان .

الفصل الثاني

ظهور بيت هابسبرج

ومد سلطانه على مقاطعات سويسرا

تطل بحيرة لوسرن التي تحتضن أقاليمنا الثلاثة (أروى وشويز ، وأنترولدن) على دوقية سوابيا القديمة التي تقسمت عند انقراض أشرافها بين أفراد وجماعات . لا صلة بينهم وبين الامبراطورية ولكن عندما أضمحلت سلطة الامبراطورية إبان فترة من الفوضى أخذت الأسرات الرئيسية تخضع جيرانها الضعفاء لسلطانها ، ولقد نجح آل الهابسبرج فى ذلك نجاحا بعيد المدى ، فقد كانت ضياعهم أصلا فى إقليم بروج Brugg بين نهرى الآر Aar والريس Reuss وهما نهران يتدفقان إلى الرين الأعلى . ولم يأت القرن الثالث عشر حتى كانت أملاكها قد وسعت برسجاو Breisgau وإلساس Elsas علاوة على ما كان لها قبل ذلك من الأملاك لأن رودلف الثالث الهابسبرجى حصر عنايته فى مد نفوذه بكافة الوسائل ، سواء أكان ذلك عن طريق الحرب أم عن طريق المفاوضة أم عن طريق الشراء .

وكان هدفه المنشود أن يعيد إلى سوابيا وحدتها الإقليمية تحت حكم أسرته آل هابسبرج ، حتى إذا تم له بعث الدوقية القديمة من جديد ، كان من الصعب أن يعهد بها الأمبراطور إلى أسرة أخرى غير أسرة الهابسبرج . ومما لا مرية فيه أن الهابسبرج كان فى وسعهم أن يصبحوا سادة على سوابيا ، لو أنهم ثابروا على مد نفوذهم وتثبيت مركزهم كأسرة سوابية ، ولكن انتخاب رودلف إمبراطوراً قد قوض هذا الهدف ، بما أتاحه للعصبة من وقت كاف للاتفاق على العمل المشترك دفاعا عن أنفسهم ومتاعهم . ثم جاءتهم فرصة أخرى لضم حلفاء إليهم بحجة تمسكهم بدعواهم التبعية المباشرة للامبراطورية عندما فشل الهابسبرج فى الاحتفاظ بعروة الامبراطورية . وذلك عندما مات رودلف أكبر أبناء ألبرت الهابسبرجى ، وخلفه فى عرش الامبراطورية رجل آخر من غير آل الهابسبرج ، هو أدولف أمير ناساو Adolf of Nassau الذى سارع إلى الاعتراف بالعصبة عام ١٢٩١ ووعدها بحماية الامبراطورية ، نكاية وإضعافا لمنافسه البرت النمسوى (الهابسبرجى) وقد تحرج مركز العصبة مرة أخرى عندما سقط أدولف هذا وخلفه ألبرت أمبراطورا .

وألبرت هذا هو الذى تنسب إلى عهده مظالم نوابه (ممثليه) فى الولايات الثلاثة بمثل ماذكر عن جسلر Gessler وغيره وما أضفى على هذا العهد خيال الوطنيين من قصص لأبطالهم بلغت حد الروعة والدقة فى تصوير الشجاعة الفردية والجماعية والتمسك الشديد بالحقوق والفضائل الأمر الذى يحتم علينا أن نتعرض لها فى شيء من التفصيل .



صورة أخرى للوسرن

الباب الثانى

نزوع الهابسبرج الى الاستبدادية

عالج الهابسبرج السيطرة على الأقاليم التى تتكون منها سوابيا بشىء كبير من الدهاء مرة ، ومن الإغراء بالمال مرة أخرى ، ومن التغرير بالاتفاقات مرة ثالثة . وظلوا وظلهم يتقدم فى أنحاء سوابيا حتى جاء البرت الهابسبرجى وتربع على عرش الامبراطورية وكان أميرا هابسبرجيا صميما ، يمثل الصلف والكبرياء والغرور والقوة ، ولقد ظن ، وقدأصبح إمبراطورا والنمسا من ورائه ، وبقية أجزاء سوابيا تشد أزره ، أنه لا يمكن لأحد أن يعارضه ، أو يقف فى سبيله إذا شاء أمراً من الأمور ، وأن أطماع أسرته فى سويسرا لابد وأن تتحقق على يديه . سواء رغب فى ذلك السويسريون أم كرهوا .

ولما كانت أقاليمنا الثلاثة لم تدخل نهائياً فى طاعة أسرته فقد تدبر الأمر ووضع الخطط التى تكفل له ولأسرته طاعة الأوريين والشويزبين والأنترولديين ، ولم يدر بخلده أنهم قد رفعوا عقيرتهم بالخروج على أبيه ، وأنهم لم يكونوا يتحرجون

أن يشهروا السيف فى وجهه ويرسلوا المقاومة من عقالها عنيفة مريرة. وبدأ الأمر، فعرض عليهم أن يقبلوه سيداً لهم، ويعترفوا له بالإمارة الوراثية عليهم، نظير معاملته لهم بالحسنى فلم يلق هذا العرض نجاحاً، وكان جواب القوم لرسله إليهم: « إننا الآن أحرار، ونريد أن نظل كذلك، ولا رغبة لنا فى أن نحيد عن نظامنا الحالى قيد أنملة، ومع هذا فإننا لن ننسى أن سيدكم هو سيدنا وإمبراطورنا، ونحن مقيمون على العهد دائماً ومبقون على الولاء للإمبراطورية ».

فلما سمع الإمبراطور هذا المقال، استنكره، وسخط على القوم وقال:

« إذا كان هذا هو موقف هؤلاء الفلاحين المغرورين ضد إرادة الامبراطور فورب العزة لأذيقنهم وبال أمرهم ولأنكلن بهم وليحذر هؤلاء الأوغاد مستقبل أيامهم فلأعاملنهم بمنتهى القسوة، ولأحاسبنهم حساباً عسيراً، على ما يقترفونه من مخالفة للقانون، حتى لا يجدوا مناصاً من الثورة، وعندئذ يحل بهم ما يحذرون، وأضع يدى على بلادهم غنيمة سائغة.. »

وبعد أيام معدودات زار الامبراطور صديقاه ، هرمان جسلر Hermann Jessler وبرنجيه لاندبرج Landberg ، فتذكر الامبراطور آنئذ ما انطبع عليه هذان الصديقان من القسوة والظلم والعنف والجفوة . فاختارهما حاكمين للمقاطعات السويسرية وكان أصلهما النمسوى كافياً لأن يكون مثيراً لكراهية السويسريين ومقتهم لهما.

ولقد عهد الامبراطور إليهما بقوله :

« لاحظت إخلاصكما وولاءكما لى ، منذ أمد بعيد ، ولذا رأيت مكافأتكما ، فعينتكما حاكمين للمقاطعات السويسرية ، فأنت يا هرمان جسلر تحكم أورى وشويز ، وأنت يا برنجيه تحكم أنترولدن» . فأسرع الرجلان بشكر سيدهما وولى نعمتهما وإعلان ولائهما وطاعتهما والوعد بأنهما لا بد مبرهنان على جدارتهما بثقة الإمبراطور الغالية .

فلما فرغا من قولهما استأنف الامبراطور مقاله: «ستكون مهمتكما شاقة وستدعوكما أنفة القوم إلى استعمال الشدة والقسوة لحملهم على احترام القانون ؛ كونا قاسيين على هؤلاء الناس ،

ولا تأخذكما بهم رحمة ، ولن أحاسبكما على عمل تأتيانه . »

فأجاب الاثنان :

«سمعا لمولانا وطاعة ، ستكون أوامر مولانا نبراسنا الذى نسير عليه وسننزع من قلوبنا الرحمة والشفقة . »

. . .



جسلر الطاغية حاكم أورى وشويز

الفصل الأول

تمسك السويسريين بحريتهم

ما كاد جسلر وبرنجيه يهبطان موطنى حكمهما حتى صبا على رؤوس الناس فيهما مختلف المحن وألوان العذاب ، فجعلا من الاخطاء التافهة مجالا للعقوبات الصارمة ، والغرامات الفادحة ، والسجن والتعذيب لمدد طويلة ، وإذا هما بعد ذلك يجمعان من الناس أنواعا من الضرائب المتلاحقة التى لم يكن لها أصل فى القوانين السائدة فى البلاد ، وسلكا فى جمعها كل أنواع التعسف والظلم والقسوة، وفرضاها على كل شىء تقريبا حتى على ما يباع ويشترى ، فكسدت التجارة ، وانتشر الفقر وعم البؤس، وأصبح كل امرئ فى سويسرا (الأقاليم الثلاثة) لا يفكر إلا فى الحصول على زاده وزاد أهله ، وبات الناس يئنون من هول ما هم فيه، وتقطعت بهم الأسباب ولم يبق أمامهم للخلاص من هذا الحال إلا طريق واحد ، هو الافلات من هذا النظام الجائر ، ولكنهم لم يتكلموا إلا همسا، وكانوا طوال الوقت يشيرون إلى ما كان لآبائهم وأسلافهم من أباطرة يحمونهم

من الأعداء مع تجردهم من مثل هذه الميزة ، بل أنهم كانوا يسامون الخسف على يد امبراطورهم، الذى كان ينبغى أن يصبح محط رجائهم فى حمايتهم ومع ذلك فقد كانوا يُصبّرون النفس ويعزونها ، ويتطاول بهم الأمل الى الله سبحانه وتعالى ، عسى أن يخلصهم من الامبراطور ألبرت ؟وته ، ضارعين إلى الله أن يكون خليفته من غير الهابسبرج ، حتى تقيض لهم فرصة يستردون فيها ما ضاع من حرياتهم .

فكأنهم كانوا والحالة هذه يقفون من عمال الامبراطور موقفا سلبيا ظنه جسلر وبرنجيه خطأ،ضعفا واستسلاما ولم يفقها إلى طبيعة السويسريين، التى كانت تحملهم حملا على أن لا يتجنوا على الحقوق ، وعلى أن يعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله،فوق شعورهم العميق بالتدين ، والخوف من الله ، ومن أجل ذلك الخطأ راح الاثنان (جسلر وبرنجيه) يكيلان للسويسريين الظلم والازدراء والاستبداد ، حتى طفح الكيل ولم يعد فى القوس منزع . .

ومن ذلك : ما ذاع أمره من أقاصيص البطولة ، التى منها قصة ملشتال Melchtal وبرنجيه :

سمع برنجيه عن رجل اسمه ملشتال ، وهو صاحب مزرعة كما ترامت إليه أنباء نشاطه وحسن تنظيم مزرعته ، فاتخذ من ذلك حجة لزيارتها ، وفعلا زارها ، وأعجب بها ، وساورته الهموم،أن يرى سويسريا يملك مزرعة على هذا النحو ، واعتقد أن من الظلم أن يكون لهذه المزرعة سيد واحد أو رجل وابنه فعقد العزم على أن يجرد ملشتال وابنه منها،ولكن ملشتال كان رجلا رزينا هادئا ، يقدر الأمور قدرها ولا تشوب سلوكه شائبة على حين كان ابنه ارنولد فتى يتناوبه طيش الشباب وحماسته آونة والنشاط والجد آونة أخرى . ولكن فؤاده كان قد امتلأ بغضا للنمساويين ولم يحاول أن يقرب بينه وبينهم،فكان كثير التصريح بمقته لهم وذهب فى ذلك مذاهب شتى فأضفى على برنجيه ألقابا تثير الضحك والسخرية مثل « داندى » أى « الديك الرومى » ذلك اللقب الذى لم يكن يذكر أمام جماعة من الناس إلا أثار ضحكهم وهز نفوسهم إلى السرور والاغتباط ومضت الأيام ونقلت تلك السخرية إلى مسامع الحاكم برنجيه فصمم على الانتقام من أرنولد Arnold وأبيه .

وجاء هذا الانتقام فى صورة تحقق له صب غضبه على الرجلين، الابن لاستهتاره والسخرية من الحاكم ، والأب لأنه كان نشيطا ذا مزرعة وفيرة الغلات. والحق إن ذلك الثراء لم يكن هو وحده مصدر غضب برنجيه على ملشتال ، بل كانت هناك أسباب أخرى : أهمها أنه لم يكن بانترولدن رجل يقدره الجميع قدره ويجلونه ويبجلونه ، مثل هنرى دى ملشتال ، الذى كان يقضى هو وابنه بعض أمسيات الليالى فى مسامرات مع جيرانهما الفلاحين ، ويتحدثون فى هذه الاجتماعات فيما يتحدث فيه الفلاحون عادة ثم يتندرون ويتفكهون ، وكان هنرى دى ملشتال وابنه يبالغان فى إكرام جلسائهما ، فذاع صيت دى ملشتال وكرمه ، وحبه لجيرانه وحرصه على مصالحه ومصالحهم ، ولم يكن ذلك طبعاً يسر حاكما من طبقة برنجيه.

وفوق ذلك كان الوالد وولده يخصان مزرعتهما وأنعامها بفائق العناية وكان لهما من وراء ذلك نفع مادى كبير . استطاعا من طريقه أن يكون لهما أجمل ثورين فى المنطقة ، ومنزل هو عروس الأقليم ، وحياة هادئة راضية ، وذلك كان طبعاً قذى فى عين الحاكم .

وكذلك وجد الحاكم الفرصة مواتية، والطريقة سهلة للانتقام من ذلك الذى يسخر منه فأرسل رودلف أحَدَ رجاله ليستولى على الثورين فى صحبة عدد من الفرسان، فصدع رودلف بأمر سيده، فلما صار على مقربة من المزرعة وجد أرنولد يحرث الأرض، ويوجه ثوريه الجميلين الوجهة المطلوبة فى رفق وجد، وعرج القوم على المزرعة فى اتجاهه، مخترقين ماقد قلبه المحراث من الأرض، وجيادهم تفسد عليه ماقد هيأ، فجعل يحدث نفسه:

«ألا يستطيع هؤلاء اللئام الأوغاد أن يتجنبوا هذا الفساد ويسيروا فى الطريق العام كغيرهم من الناس !!»

فلما كان القوم على مقربة منه ترجلوا وتركوا الخيل لأحدهم، وتقدموا حتى أصبحوا مع أرنولد وجها لوجه، وعندها قال رودلف:

«هاهما الثوران اللذان جئنا من أجلهما، حلوهما وسوقوهما إلى الحاكم».

عندئذ لم يتمالك أرنولد أن يصيح فيهم:

«لا يمس أحد منكم هذين الثورين، فهما ملك لى!» . فأجابه رودلف على الفور:

« ملكك ! حقاً ! حقاً ! لقد أطمعتك سماحة الأمير وكرمه أن تجترئ وتقول ماليس لك أن تفوه به . إن هذه الأرض وماعليها ملك للأمير ولايغرنك أنه قد تركك تعيش عليها ، فتدعي ماليس لك بحق ، فما كان ذلك إلا من كرمه وفضله ، وإنى لأنصح لك ياهذا أن تحترز لنفسك وتصون لسانك عن تسمية الحاكم « بالدندى »

فرد أرنولد قائلا :

« إذاً انت تريد لقاء كلمات قيلت فى معرض الفكاهة أن تصادر ثيرانى ؟ وماذا أعمل غداً لأكمل حرث أرضى ؟ »

فضحك رودلف ضحكة الاستهزاء وقال :

« لتجر محراثك بنفسك ! ألا ترى أيها الغبي الأحمق أننى أصدرت أمرى بأن يحمل ثورالك إلى الأمير وأن اعتراضك لافائدة منه ؟ »

وعندها حل رودلف بيده الثورين فلم يتمالك أرنولد نفسه فصاح : « حذار من فعل ذلك ! »

ولكنها صرخة فى واد واستمر رودلف فى حل الثورين فاشتد بأرنولد الغضب وهوى بعصاً كانت معه على يد رودلف

فانكسر أصبعاه وجعل يتلوى من الألم وصاح فى رجاله أن يقبضوا على المجرم الأثيم ولكن أرنولد كان قد أطلق ساقيه للريح إذ وجد من العبث أن يقاوم جمعاً من فرسان مسلحين، فترسم الفرسان خطاه ولكن الغابة القريبة ابتلعته، ولم يستطع الفرسان أن يجدوا له أثراً بين أشجارها.

ولما يئس الفرسان من اللحاق بأرنولد انكفأوا راجعين إلى رودلف، تعلو وجوههم الكآبة، وحلوا وثاق الثورين وساقوهما فى صحبة رودلف إلى سيدهم برنجيه.

* * *

أمر عجيب! جمع من الفرسان، تؤزرهم سلطة الحاكم الطاغية، يهمون بتنفيذ أمر من أوامره فيعترضهم شاب، ويقف فى طريقهم: لا، لا! بل هو يزدرى هذه الجماعة وينزل عقاباً عاجلا برئيسها ثم هو بعد ذلك ينجو من الأسر ويتمتع بالحرية! يالها من شجاعة وجرأة تمثل روح السويسريين فردا وجماعة وتقترب من قلوبهم فلم يكن غريباً أن يشيع الأمر بين القوم فيثور إعجابهم بأرنولد ويشتد فخارهم، بأنه منهم وأنهم منه، وأنهم جميعاً من الأسرة السويسرية.

موقف يثير العجب والفخر حقاً ولكن هل كان ذلك يغنى

الأب الكهل ، فينسى ولده ، وقد أصبح شريداً طريد القانون، عدواً لحاكم طاغية ، لن يهدأ له بال حتى يذيقه العذاب على ماجنت يداه ، وهل كان الابن معتديا أو متجنيا ، إذا كان انفعال الغضب قد تملكه ، لما كان من جند الأمير من هدر للحقوق واستهزاء بالشعوب والعواطف ؟ .

كلا ، بل إن كل ذلك وما يستحقه من إعجاب وفخار كان بعيداً كل البعد عن ذلك الوالد ، الذى خفق قلبه إشفاقاً وحنانا على ولده ، الذى كان ولابد من أن يصبح هدف الطاغية وما يصوره له خياله من عسف وجور واستبداد .

وتصوَّر حال ولده، وهو طريد ، لا تحدثه نفسه بالعودة إليه مرة أخرى . خوفا من أن يكون وجوده فى منزل أبيه فرصة للقوم لأن يشركوا الوالد فى مصير ولده .

وقد صدق حدس ملشتال ، فقلب المؤمن دليله ولم يكد الصبح يتنفس حتى أمر برنجيه ثلة من الجند المسلحين باقتفاء أثر أرنولد ، وتضييق الخناق عليه، حتى يأتوا به حيا أو ميتا. وجدّ الجند فى البحث وطافوا أنحاء المقاطعة دون أن يظفروا ببغيتهم لأن أرنولد قد آوى إلى ركن حصين عند بعض أصدقائه

ولم يكن هينا أن ينكشف أمره ، وهو فى هذا المأوى ، وكذلك خابت جهود الباحثين .

واشتد غيظ برنجية وذهب به الغضب كل مذهب ، فأمر باستحضار الوالد ، ظنا منه أنه يعرف مكمن ابنه وأنه بالترغيب أو الترهيب قد يكشف خبيئته . وهكذا سيق الوالد إلى الحاكم ، ودار بينهما الحوار الآتى :

الحاكم — ماسمك ؟

— هنرى دى ملشتال .

الحاكم — أين يختبئ ولدك اللعين ؟

— لاعلم لى ياسيدى

الحاكم — بل تكذب ، أيها العجوز الماكر ، وتأبى معاونة العدالة فلأذيقنك وبال أمرك حتى تعترف [1]

ملشتال — (متوسلا) أقسم لك أيها الأمير بكل عزيز

---

(١) كان التعذير (التعذيب للاعتراف) سنة جرت عليها عادة القوم فى ذلك الزمان وكان التعذير يتخذ صورا شتى من الوحشية تستلهم التعذيب بطرق متعددة ووسائل مختلفة ، منها تسيير المتهمين فوق نار متأججة ، ومنها الصلب على الأخشاب وغير ذلك وكان التعذير أشد إذا كان المتهم بريئا وليس لديه ما يعترف به .

لدى ، أنى لا أعرف لابنى مكانا ، وأنى لا أخفى فى نفسى شيئا عن الأمير ، وبودى لو أستطيع أن أساعد العدالة أن تأخذ مجراها ، ولو أن ذلك سهم يصوب إلى قلبى .

الحاكم — (فى تهكم) هراء ! أوتريد بهذا التوسل أن تخدعنى ، وأنت تعلم حقا مكان ابنك ! .

ثم التفت إلى رجاله وقال

— خذوه فغلوه ثم أسملوا عينيه فهو كاذب ، ومادام يأبى الاعتراف ، فليس له عندى إلا أن يدفع ثمن جريمة ابنه

وجعل ملشتال يتوسل ، ويقسم بأنه صادق ، ومع ذلك فإن قلب الجبار لم يلن ، وسيق الرجل الكريم إلى حيث سملت عيناه ، وأصبحت الدنيا فى وجهه ظلاما، فى ظلام . وعندئذ قال أحد النظارة لرودلف : «عظيم ! لقد انتقم الأمير لك خير انتقام ، فقد شرى إصبعيك بعينين »

فقال رودلف :

« أجل ، وشكرا . .... ولكننى فى حاجة إلى بعض المال فليس لدى منه إلا القليل» .

وكان الجواب :

« سيكون لك ما تريد . لقد نعم ذلك الفلاح الشقى بالكثير منه ومن حقك أن تنال جزءا كبيراً مما له جزاء وفاقا على ولائك .

وفعلا تم ذلك ، واغتصب من آل ملشتال أملاكهم وأرضهم وماشيتهم ، ومنى السويسريون (أهل الإقليم) بفاجعة مؤلمة تفتت الأكباد ، وتتجدد ذكراها كلما رأوا ملشتال. العجوز وقد صار أعمى معدما ، يطوف بالمزارع والأكواخ مستجديا ، يطلب إليهم أن يسعفوه بقوت يومه ، على الرغم من أنه كان يلقى منهم كرما وعزاء ومواساة جمة .

وكذلك وهب الله السويسريين هذه المأساة لتذكرهم دائما بما يتهددهم من الأخطار على يد هذا الطاغية الذى سلطه الهابسبرج عليهم ليستذلهم ، ويجردهم مما استنقذوه من براثن الطبيعة القاسية من حرث وصيد ونعم . ولعل هذه المأساة ، التى مثل أدوارها ذلك الرجل النبيل وابنه ، وما كان لهما من صلات وثيقة بالقوم كانت الشرارة الأولى لإضرام نار الثورة السويسرية ضد سادة الاستعباد فيها ، ألا وهم آل الهابسبرج وعمالهم .

ذلك وأضرابه وقع فى أنترولدن ميدان نفوذ برنجيه ، فما الذى أتاه جسلر فى شويز وأورى؟ تتبين ذلك من القصة التالية:

نزل جسلر ببلدة كوسناشت Kussnacht بقاطعة شويز ، وسكن فى قلعتها فعمل جاهدا حتى أحاط هذه القلعة بجو من الرهبة وسياج من الهيبة ، رهبة الجبروت وهيبة الاستبداد ومازال يذيق أبناء أورى وشويز من صنوف الظلم والطغيان ماجعلهم يحسبون له ألف حساب وحساب فكان الفلاحون مثلا إذا اضطروا إلى المرور بقلعته ، يرسمون الصليب على صدورهم ويقرءون صلاة قصيرة، لعل الله ينجيهم إبان مرورهم مما يبيته لهم جسلر من شر وعدوان .

وياليت جسلر قنع بأن يكون له مربض فى شويز دون أورى ، بل إنه عقد العزم على أن يكون له فى أروى مثل ماكان له فى شويز ولما لم يكن بأورى مبنى يشبع كبرياءه فإنه اختار بقعة ليبنى فيها قلعته على مقربة من قرية التدورف (Altdorf) غير بعيد من بحيرة لوسرن وتطلبت عملية الإنشاء بنائين وفعلة تحمل أهل أروى العنت فى تقديمهم على الرغم من أنهم كانوا يعلمون أنهم يساهمون فى بناء قلعة سوف تسومهم

سوء العذاب وينبعث منها كل ماينطوى عليه الظلم والاستبداد من آثار بل إنهم كانوا يعلمون كذلك ، أنهم يبنون سجنا سيزج فيه الكثيرون من الأبرياء وكثيرا ماكان جسلر يتفقد سير العمل ويمطر العمال بمختلف الإهانات والتحقير لما كان يبدوله منهم من تقاعس وكثيرا ماكان يقول فى صلف وكبرياء :

« إن هؤلاء الرعاة لايصلحون إلا للسير وراء البقر والركض على سفوح الجبال ! »

وكان القوم كلما سمعوا هذه الإهانات تنهال عليهم يشمئزون ويغلى الدم فى عروقهم من شدة الغضب ، ولكنهم لم يكونوا قادرين على أن يقابلوا الإهانة بمثلها ، وعلى ذلك كانوا يحبسون إنفعالاتهم وكذلك ظل المرجل يغلى .

وفى يوم كان جسلر يزور فيه المبنى وبصحبته أحد بطانته فإذا بذلك الرفيق يميل عليه ويقول :

« متى ستزور ياسيدى الكونت كوسناشت لتتأكد بنفسك مما وصلنى من أن أحد أهاليهما المدعو فرنر ستوفاشر Verner Staufacher قد بنى لنفسه دون إذن منك مبنى فخما وقصرا منيفا . » . فقال جسلر :

« إن وقاحة هؤلاء القوم لاتقف عند حد وسأذهب لزيارة هذا المبنى بعد قليل. »

فقال الرفيق :

« ولكن كيف يكون عقاب هذا الأثيم ياسيدى ؟ »

فقال جسلر متعجبا :

« تسألنى كيف ! سأصادر قصره هذا ، فالفلاح ينبغى له أن يعيش فى بيت عادى فأنا لاأطيق أن أرى أحدهم يسكن بيتا لايتناسب مع مستواه . »

وسار الفرسان بعد هذه المناقشةالقصيرة عبر واد كسته الطبيعة بالخضرة ، ومرا فى طريقهما بقطعان كثيرة من الأغنام وبعد قليل من الزمن رأيا عن بعد قصر ستوفاشر وقد برز من بين أشجار الصنوبر جاذبا إليه الأنظار وكان مصنوعا من الخشب كسائر أبنية الأقليم ، ولكنه كان ذا طلعة بهية وشكل يروق العيون ، يتزايد الاعجاب به، كلما طال إليه النظر ، سطحه من القرميد الأحمر البديع ، وجدرانه طليت بطلاء أبيض ، تحيط به الأشجار فتزيده بهاء وجمالا ، وكلما انعكست الشمس

على زجاج نوافذه انعكست آية جماله تسحر الألباب ، وتجتذب النفوس .

ولما تقدم الفارسان بحيث أصبحا قاب قوسين أو أدنى من القصر تبين جسلر على واجهته عبارة : « ابتنى هذا القصر فرنر ستوفاشر وجرترود زوجه ، سنة ١٣٠٧ ميلادية » .

لم يكد جسلر يرى القصر ، حتى غرق فى بحر من الأفكار والهواجس حول تكاليف القصر ونفقاته ، والكيفية التى استطاع بها مثل هذا الرجل أن يحصل على المال اللازم لبنائه ، فازداد غما على غم ، واشتد به الغيظ واندفع بجواده فى حديقة القصر إلى الباب الرئيسى حيث كان يجلس ستوفاشر — وهو فلاح قد ناهز الخمسين من عمره — على أريكة له فانتفض واقفا وتقدم للقائد محيياً إياه بأطيب تحية ممزوجة بالاحترام والإجلال قال :

« مرحبا بمقدم سيدى السعيد لزيارة أحد رعايا صاحب الجلالة الإمبراطورية » .

أهمل جسلر الرد على تحية الرجل ، وابتدره بالسؤال :

« من يكون صاحب هذا القصر ؟ »

لحظ ستوفاشر مايخفيه هذا السؤال من رغبة فى الاستفزاز، قد تكون سبباً فى صب جام غضب جسلر عليه وعلى أهله ، فقال فى لهجة الرزين المقدر لموقفه: «هذا القصر ياسيدى، وما يحيط به من حقول خضراء هو هبة حبانى بها صاحب الجلالة مولانا الامبراطور . » فاستنكر جسلر فى نفسه مثل هـــذا الجواب وقال بلهجة الغاضب :« الأمبراطور هنا هو أنا وبعبارة أوضح أنا نائب الإمبراطور فى حكم هذا الاقليم ولا أستطيع أن أسمح لفلاح حقير مثلك ، أن يكون له مثل هـذا القصر فضلا عن أنك بنيته دون إذن منى ومثل هـذا الذى وقع من مثلك يعد غرورا بقـدرتك ، تستحق عليه العقاب ! » ولم يدع جسلر لستوفاشر مجالا للاجابة ، فقد هز جواده ورجع ، وفى إثره رفيقه . وتتبع ستوفاشر البائس ، بنظرة كلها حسرة وأسى ذينك الفـارسين وهما يبتعدان عنه شيئا فشيئا حتى اختفيا عن ناظريه ، ثم جلس كأن به مسا من الشيطان يطير بفكره من حَدْس إلى تخمين ، ولم يفق من تأملاته إلا عندما أحس بيد تربت على كتفه فتبينها فإذا هى يد زوجه وإذا به يسمع صوتها الهادئ المليء بالحنان والرقة يخاطبه :

« ما خطبك ياعزيزى فرنر ؟» فأجاب متكلفاً الابتسام : « لاشىء ياعزيزتى ، لاشىء مطلقاً . » فلم تقتنع الزوجة بهذا الكلام بل عقبت عليه بقولها : « ألست يافرنر ابنة النبيل أيبرج ، المعروف بالكياسة والحكمة ؟ أو لم تعرفنى وتتبين مافى آرائى من نضوج ؟ لقد مربنا الحاكم ووقف ببابنا ، وتحادثتما فماذا قال ؟ وماذا قلت ؟ »

فقال فرنر :

« أؤكد لك أنه لم يحدث شىء مطلقا ، سوى أن منظر بيتنا أثار غيرته وحقده ، وظهر من نغمات عباراته أنه يضمر لنا شرا وإنى لمتأكد من أن هذا الوغد سيجردنا من هذا البيت الجميل بل ربما حرمنا من جميع أملاكنا . » فامتقع لون جرترود وقالت .

« يا للعار ! إلى متى يظل هذا البلد المسكين خاضعا لهذا الظلم الفادح ؟ آه لو كنت رجلا ! »

وسكتت لحظة ثم استرسلت : « استمع لى يافرنر ، لا يكاد يمر يوم دون أن يقع أحد أصدقائنا صريعاً لظلم ما ، وأنت تعلم أن سكان شويز قد عيل صبرهم وأكبر ظنى أن الحال كذلك

فى أروى وأنتروالدن حيث لا يتورع برنجيه عن ارتكاب أكبر الجرائم . ألم تسمع بما أصاب صديقنا ملشتال من عدوان وظلم ! استمع لنصيحة زوجك : ابحث سراً عن أصدقائك الأوفياء واعملوا جميعاً متعاونين على رفع نير الاضطهاد النمسوى ثم ابحث فى أورى عمن تثق بهم واطلب إليهم معاونتكم فإنهم لاشك فاعلون » .

فقال فرنر : « حقا أعرف الكثيرين ممن أثق فيهم بل أأتمنهم على حياتى ، لقد أثرت فى الشجاعة ياعزيزتى جرترود وسأرحل هذا المساء إلى أورى حيث أتبادل المشورة مع صديقى المبجل و الترفرست . وحقا انه لم يعد هناك وقت نضيعه فى غير العمل لانقاذ حرياتنا المتوارثة فإذا نحن سقطنا فى ميدان الحرية فهنيئا لإخواننا وأبنائنا ثمار تضحيتنا . »
فأجابت جرترود : « بفضل من الله ونعمة نخرج من القتال ظافرين منتصرين وعلى قيد الحياة والله لا يضيع أجر من أحسن عملا . وهل هنالك عمل أفضل من الذود عن الحرية وأقدس من حماية الذمار ؟ »

تفرس فرنر فى وجه زوجه فرأى فيه الشجاعة بادية والنبل بين وقرأ فى عينيها عبارات الارتياح لما وطد العزم على تنفيذه.

* * *

وهذه مأساة أخرى قد بعثها من مرقدها استبداد جسلر. وغرامه فى أن يذيق الأوريين والشويزيين العلقم فى ذلة وعلانية ولكن هذا الطريق الذى أراد جسلر أن يحملهم على سلوكه قد حولهم — وهم الوادعون الحريصون على تأدية الواجب ، المؤمنون بالله — إلى طريق المحافظة على حقوقهم ، وأنى لهم أن يجبهوا الظالم بالحق علانية وهم فى قلة وسوء عدة ، وجسلر من ورائه الامبراطور بخيله ورجله وقوته ، فلا عجب أن سلكوا الطريق الخفى فى الدعاية لحرياتهم ، ليستزيدوا من عددهم وليوثقوا الأيمان ألا يكون منهم خائن أو متقاعس أو معوق ، حتى يصلوا إلى حقوقهم كاملة ، وفى ذلك كان فرنر أول الساعين فودع زوجته واتجه إلى أورى، وخطر له أن يتعرف شعور الناس قبل أن يزور صديقه والترفرست وأن يتحسس ماتكنه صدورهم ويجول بخاطرهم ، طبقة طبقة ، من شيب وشباب ، تجار وصناع ، زراع ورعاة وهكذا ، وفى ذلك

قضى يومين متجولا بين القرى يستمع ويتحدث إلى أهلها فتكشفت له الحقائق المرة التى تظهر الجور سافراً والاستبداد الشنيع ماثلا . فهذا قد اغتصب الحاكم ما شيته ، وذاك قد جرده الجند من منقولاته ، وآخر زج فى غيابات السجون لانه لم يخضع الخضوع كله للنمسويين ، ورابع قد سخر للعمل فى بناء قلعة التدورف ورغم شيخوخته يعامل بالقسوة والغلظ .

وفوق هذا فقد كان الأوريون يرمقون قلعة التدورف بعين السخط والمقت لأنهم كانوا يقدرون أنها ستكون مبعث عبوديتهم ومصدر آلامهم وقد صدقوا فيما زعموا فإنها كانت سجن الأبرياء ومثوى لضحايا الحرية والشهداء . وكان الناس فى سريرتهم يؤثرون أشد العذاب مع الحرية ويتهامسون بأن الظلم إذا استحكمت حلقاته والاستبداد إذا استحلكت ساعاته فقد أذنا بالخلاص ودق ناقوس الحق والحرية ، ومن ثم كان أملهم فى أن الصبح قريب ، ونور الحق غير بعيد ، فارتقبوا الخلاص ، وبالغوا فى الهمس والتصبر ، بأمل أن تشيع بين الجميع جذوة الخلاص من الاذلال عندما يبلغ الطاغية ذروة طغيانه ولا جرم فقد سرت بينهم روح التذمر وأشربت نفوسهم

بالضجر والاستياء وكانوا كلما زاد الحاكم وأعوانه ظلما وجورا ازدادوا سخرية بجنده النمسويين وخلعوا عليهم ألقابا لا يلبث سامعوها أن يغرقوا فى الضحك والاستهزاء .

* * *

جو ساكن ولكنه السكون الذى يسبق العاصفة ونفوس ثائرة ولكنها متربصة . هى ليست فى حاجة إلى إلهاب ولكنها تواقة إلى الشرارة الأولى لتتقد . عرف ستوفاشر هذا من استفتاءاته واطمأن إلى ماتنطوى عليه الأيام والليالى من طوفان جارف للظلم وأهله ، فترك شويز قاصدا إلى التدورف حيث أقام والترفرست ، فلما دخل المدينة سمع فى سوقها ضجة كبرى امتزجت بخطوات نظامية ، وبعد قليل تكشفت الضجة عن فرقة من الجنود النمسويين ، ومن ورائها جماعات من النساء والأطفال ، وفى طليعتها جندى يحمل قطعة مستديرة من الخشب بأعلاها قبعة من المخمل الأسود ، تزينها ريشة طاووس تلك كانت قبعة جسلر المشهورة وكانت الفرقة تسير فى موكب عسكرى لتثبتها فى سوق المدينة ولم يدر بخلد أحد

أن هذه القبعة ستكون مصدرا جديدا لإشباع شهوة الانتقام ، ورغبة الحط من قدر السويسريين.

من أجل ذلك تبادل القوم عبارات من السخرية كقولهم:

« إليكم علم الحكومة الجديد؟ ما الغرض من مثل هذا الموكب المضحك !؟

« هل فقد طاووس فى كوسناشت ريشة من ريشه ؟ » إلى غير ذلك من عبارات الاستنكار والسخرية وكانت تلك الفكاهة تنم عما كان يكنه القوم للحاكم والنمسويين معا من زراية واستهزاء.

وسأل ستوفاشر من حوله عن معنى مايرى ولكنه ولم يطل به الانتظار فلم يكد ينتهى تثبيت الخشبة فى وسط السوق، حتى قام مناد يرتدى حلة قرمزية مزينة برسم أسود للنسر النمسوى،ودقت الطبول ، ونفخ فى الأبواق لدعوة الناس إلى الصمت ، وعندها خاطب المنادى الجمع بقوله :

« باسم جلالة الأمبراطور ، استمعوا وعوا ما أقول :

عليكم يا أهل أورى أن تحيوا هذه القبعة كلما مررتم بها برفع قبعاتكم وإحناء قاماتكم كما تحيون جلالة الإمبراطور نفسه!

تلك هى مشيئة الامبراطور الذى يود أن يعرف المخلصين

من رعاياه ولمن خالف هذا الأمر عقاب شديد ومصادرة لأملاكه ! »

ثم دقت الطبول ونفخ فى الأبواق مرة أخرى ، وعاد الجند من حيث أتوا وتعالت الصيحات : « ما هذه السخافة ! أرأيتم مهزلة كهذه ! أينحنى الناس أمام قبعة وريشة طاووس ربما كان هذا الأمر مستساغا ، لو أن الخشبة علاها تاج الامبراطور ولكن هذه هى قبعة جسلر ! قد ابتكر هذا الطاغية تلك الوسيلة لينال بها من الأبرياء ، وينكل بها بمن يشاء ! أى رجل حر يوافق على الانحناء أمام قطعة من المخمل مزدانة بريشة طاووس ! »

ثم انفض الجمع وقد أيقن الناس أنه إنما يراد بهم الإذلال والهوان فقرروا ، كل فى نفسه ، أن يتفادوا المرور بتلك البقعة حتى لا ينال الطاغية غرضه . ومن بين ذلك الجمع الكبير كان فرنر ستوفاشر الذى امتلأ قلبه غضبا واشتد كرهه لجسلر والنمسويين .

الفصل الثانى

لقاء وعهد

ترك فرنر السوق وقصد توا إلى منزل صديقه والترفرست Walter Furst فلقى من الترحيب مايليق به وبصداقته لصاحب الدار ، الذى عبر عن شديد سروره وكثير سعادته للقاء صديقه القديم ولكنه تساءل عن السبب والظروف التى عجلت بقدمه إلى التدورف دون سابق علمه بذلك فقال فرنر :

« جئت لأرى صديقا قديما ووليا حميما لأستشيره وأستمد منه المعونة فيما أنا فيه من نكد وسوء طالع وكم أنا معجب بنشاطك ياسيد والتر ومسرور بما يبدو على وجهك من علائم الصحة رغم تجاوز الخامسة والستين حتى لتبدولى شابا » .

ثم جلس الاثنان أمام المدفأة . وساد مجلسهما الصمت برهة أنهاها قول فرنر :

« لم آت هنا عبثا ياسيدى ، وإنما دفعتنى إلى ذلك أحداث جسام فقد خلفت ورائى القلق مخيما واضطراب الخواطر

منتشرا : فاذا بى أجد الحال هنا على نحو ماخلفت فما أشبه الليلة بالبارحة وكذلك تيقنت أننا فى المصائب سواء وأننا فى ميدان الكوارث فرسا رهان . »

ثم قص فرنر على مسمع والتر صديقه ماجرى بينه وبين جسلر عندما زار الأخير داره وما تفوه به فى أثناء تلك الزيارة فقال والتر :

« ليس هذا بأغرب مما حدث فى انتروالدن، ففى قرية سارنن Sarnen رجل وقور يجله الناس هناك ولا إخالك الا تعرفه ، فهو هنرى دى ملشتال . »

فقال فرنر : « ومن يجهله ؟ خبرنى بربك ماذا أصابه ؟ »

فقال والتر :

« ارتكب ابنه أرنولد ماتسميه ، إن شئت، هفوة ، فأسرع برنجيه إلى مصادرة ثيرانه فما كان من الابن فى سورة غضبه إلا أن ضرب الرسول وهرب » . فأجابه « أعلم ذلك ياوالتر ولكن ماذا أصاب الوالد؟ » ، فاجاب والتر: «استدعاه الحاكم وأصر عليه أن يختار بين أمرين : تسليم ابنه أو الدلالة على مقره فأقسم أنه يجهل مقر ابنه فضلا عن أنه ليس معه — وهو صادق — فلم

يستنسغ ذلك برنجيه وأمر بسمل عينيه » ، ثم صرخ متضرعا :
« إليك أشكو يا إلهى، يحدث هذا والابن مختبىء عندى ! »

ولم يكد والتر ينتهى من قوله حتى انفتح باب حجرة مجاورة ، وخرج منه ارنولد متقد العينين شرراً مكفهر الوجه ثائر النفس وصاح :

«ماذا قلت ؟ هما العينان ياسيد ! سملوا عينيه من أجل هفوة ارتكبتها . مسكين أنت ياأبى ! يالتعاستى وشقوتى ! خوفا على حياتى وتفكيراً فى سلامتى نسيت أنتقام هؤلاء الأوغاد منك ولكننى أقسم بأنى لن أتركهم حتى انتقم لك شر انتقام ، ألا أبلغا هؤلاء الذين يحرصون على قطعانهم ومساكنهم أنهم سيظلون يرسفون فى قيود الظلم والهوان . ألا أبلغوهم أنه إلى جانبهم وفى الجبال يعيش رعاة وصيادون ، ليس لديهم مايحرصون عليه وسيلحقون بى ويؤزروننى وبفضل مساعدتهم أتمكن من القبض على عنق هذا الظالم الغشوم بيدى ، وأنتزعه من بين فرسانه انتزاعا ليلقى منى القصاص العادل على ماجنته يداه .
فرد عليه ستوفاشر :

«تذرع بالصبر يابنى، وكن حكيما فى قولك، رشيداً فى رأيك وثق بأننا إلى جنبك نشد أزرك عندما يدق ناقوس الثورة ولكننى مع هذا أنصح إليك ألا تخاطر بحياتك فى مغامرة طائشة لاتجدى وأرى أن تذهب متخفيا إلى أنتروالدن حيث تلتقى بأصدقائك، فاجمع كلمتهم ووحد بين صفوفهم. وأعمل أنا من ناحيتى على إثارة أبناء شويز وأعدهم للثورة فإذا هبت العاصفة من شويز وأنتروالدن فأورى ولا شك مشتركة.»

والتفت إلى والتر وقال: «أليس كذلك؟» فأجابه والتر: «الحرب يافرنز خراب ودمار تأتى على الحرث والنسل، ولكن الحرية والكرامة لاتشريان بغيرها والدماء الزكية ثمن وأى ثمن للحرية. الحرية تؤخذ ولا تعطى، ومادام الأمر كذلك ويأبى الطغاة إلا استرسالا فى الظلم والاستبداد، فتلك مشيئة الله، وليفعل الله مايشاء، ولنكن أول الضحايا فلا عيش مع الهوان ولا حياة مع الجبن، وسأبدأ من الآن فى تنظيم الثورة فى أورى.»

هنالك انتصب ستوفاشر واقفا، ودعا زميله إلى القسم،

الذى لا حنث فيه، على الجهاد فى سبيل الحرية .. وهكذا انتهى المجلس من لقاء وحديث إلى قسم وعهد على الحياة الحرة أو الموت الكريم .

اتفق رأى الثلاثة على أن توضع تفاصيل الحركة فى اجتماع يدعى اليه عشرة من كل مقاطعة، وبعد أخذ ورد تقرر أن يكون مكان الاجتماع شبه جزيرة روتلى (Rutli) التى تحيط بها أشجار الصنوبر العالية والتى يستطيعون أن يقضوا فيها الليل من غير أن يلفتوا إليهم الأنظار أو يثيروا فى اجتماعهم الشبهات وافترق ثلاثتهم على أن يوافى كل منهم مكان الاجتماع بقرنائه العشرة بعد ثلاثة أسابيع وتواعدوا منتصف ليل الأربعاء السابق لعيد القديس مارتن .

الفصل الثالث

اجتماع روتلي (Rutli)

يمم الثلاثة كل شطر قبلته ، عاقد العزم على جمع كافة أبناء مقاطعته ، تستحثه الخشية من أن يسبقه أحد زميليه إلى استمالة عدداً كبر مما يستميله هو إلى النشاط والحركة، وهذا دليل على شدة تعلق كل واحد منهم بالأمر وعده خطيرا كالحياة أو الموت . وكيف لا يكون ذلك ! وهي الحرية في الميزان .

ورغم دقة المهمة وخطورتها لانتشار الجواسيس النمسويين في كافة أنحاء المقاطعات الثلاث ، فقد حالف التوفيق ثلاثتهم .

وكانت مهمة أرنولد بصفة خاصة شائكة شاقة فلم يكن في وسعه أن يظهر نهارا مخافة القبض عليه ، غير أن معرفته التامة بأنترو الدن سهلت عليه التجول بها ليلا . فبدأ بزيارة الوادي الذي ولد فيه ، حيث التقى بوالده العجوز فوجده يعيش في فيض من إحسان مواطنيه ، ثم أخذ يذرع المقاطعة طارقا كل باب ، سواء أكان ذلك في أعلى الجبال في مواجهة أخطار

الهيارات الثلجية ، أم كان فى الوديان المسكونة وغير المسكونة

انتهت الأسابيع الثلاثة ، وحل موعد الاجتماع بروتلى . ولم تكد تغيب شمس ذلك اليوم ، حتى كان ممثلو أنترو الدن العشرة فى طريقهم إلى روتلى ، متفادين الطرق العامة ، ومجانبين العيون ، حتى وصلوا شاطىء بحيرة لوسرن على مقربة من روتلى ، مجتازين لسانا صغيرا من الأرض حتى وصلوا إلى شبه الجزيرة ، فوجدوا ملشتال الابن وأصحابه فى مرج أضاءه القمر ، فقال أرنولد :

« لقد وصلنا فى أمن وسلام . » وبعد لحظات سمعت ساعة التدورف تعلن الثانية عشرة ودوى صدى دقاتها فى أرجاء الوادى الساكن ، وبعدها بقليل وصل وفد شويز وعلى رأسهم ستوفاشر ، ثم جاء أبناء أورى وعلى رأسهم والترفرست وبجانبه رجل جاوز العقد الثالث من عمره وهبه الله بسطة فى الجسم ورجاحة فى العقل وعلى رأسه قبعة من جلد الوعل (الشاموا) وقد لف ساقيه بشريطين من الجلد .

لم يكد أرنولد يتبين ذلك الذى كان إلى جنب ستوفاشر حتى بادر للقائه وقال :

« الحمد لله الذى أنعم علينا بوجودك معنا ياتل . »

وسأل أحد أبناء شويز ستوفاشر عما إذا كان ذلك الشخص هو وليم تل صهر والترفرست فلما أجابه بنعم أبدى سروره أن كان فى زمرتهم أكبر حاذق للرمى بالسهم فى مقاطعاتهم.

وبعد ذلك أخذ القادة ينظمون الاجتماع وبدأوا بإرسال رقيبين ليحرسا الطريق إلى مقرهم ، وزيادة فى الحيطة أعدت قوارب بالبحيرة لنقل المجتمعين عبرها حتى لاتكشف المفاجأة أمرهم ثم بدأ والترفرست بالحديث فقال :

« أنصار الحرية !

اضطررتم للقدوم هنا خلسة خلال الليل الدامس ، وكأنكم لصوص لتجتمعوا فى إحدى البقاع التى عمرها آباؤكم وأجدادكم من قبلكم . تعلمون ما نعانيه من ظلم لامسوغ له وما نئن تحته من اضطهاد لا يبرره عقل أو قانون . دعوناكم إلى الاجتماع هنا فلبيتم دعوتنا ، وقد أقسمنا فى اجتماع سابق على أن نحرر بلادنا من الاستعباد النمسوى ، فهل أنتم مقبلون علينا بروح التضحية التى حفزتنا إلى هذا القسم ومنضمون طواعيه إلى صفوف المجاهدين ؟ »

وتوقف هنيهة ليستمع إلى الحاضرين وهم جميعاً يؤمنون على دعوته ، ويستجيبون لها بقول « نعم » ثم استأنف والتر الحديث فقال :

« إذا فاستمعوا إلى القسم الذى ستتلونه » .

وفى الحال وقف الجمع فى شكل نصف دائرة ، ووقف والترفرست رافعاً يديه إلى السماء ، وتلا القسم الآتى ، والجميع من ورائه يرددونه : « نقسم أن نكون مخلصين لقضية بلادنا ، وألا نخونها إطلاقا ، وأن نكون جميعاً يداً واحدة وعلى قلب رجل واحد ، متحدين فى العمل من أجل وطننا المحبوب ، حتى نخلصه من ظلم الطغاة ، ونتخلص من الحكام النمسويين وأنصارهم وجندهم ، وأن نصل إلى ذلك بجانبين إراقة الدماء ، إلا إذا قضت الظروف باهراقها ، فما علينا من سبيل ، ونعلن استعدادنا للموت ثمنا لحرية بلادنا ، كما نعلن إرادتنا الجازمة بالبر بقسمنا هذا حتى الموت . »

وأعاد أرنولد واستوفاشر القسم ورردده من بعدهما كل واحد من الثلاثين المجتمعين .

* * *





المباريات السنوية تذكار الاجتماع الروتلي

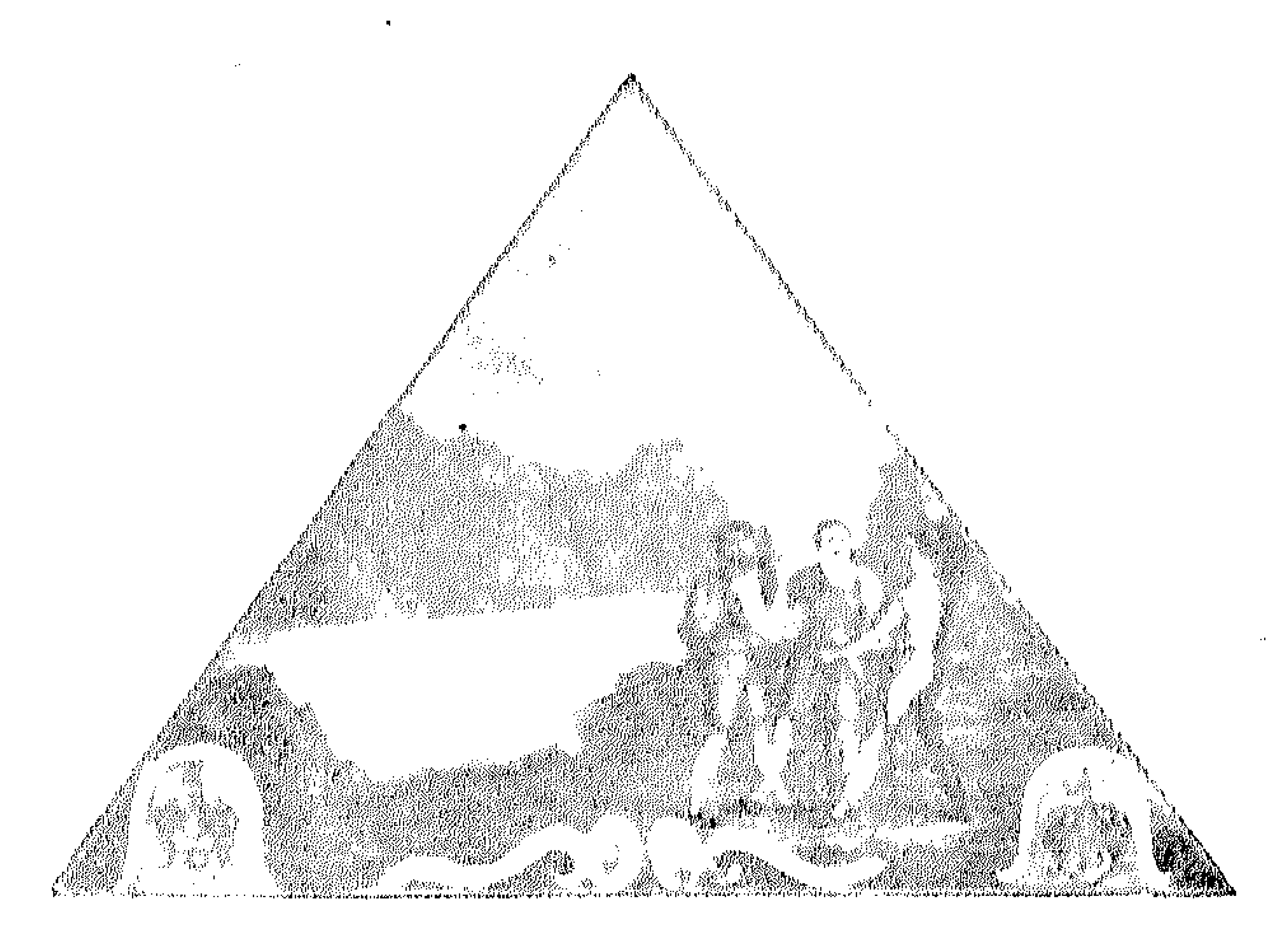
شهدت الأرض والسماء والقمر والنجوم على ماتم من الأمر فى هذا الاجتماع الفريد فى بابه ، الذى ضم ثلاثة وثلاثين رجلا كانوا قلب سويسرا النابض ، وفؤادشعبها ، وعقله المدبر

وقضى المجتمعون بعض الوقت دارسين تفاصيل مشروع حركة المقاومة ، ومقدرين المهمة الملقاة على عاتقهم ، ومذللين الصعاب التى تعترضهم فى مستقبل الأيام ، ومعدين العلاج الناجع لكل مفاجأة محتملة .

وقر قرارهم بعد الدرس والتمحيص على ضرورة الاستيلاء على القلاع التى تأوى اليها الحاميات النمسوية ، وتعتصم بها ولما كانت تلك القلاع حصينة منيعة ، فقد رأوا عبث مهاجمتها والاستيلاء عليها عنوة ، مخافة إراقة الكثير من الدماء الزكية ولذا عدلوا عند ذلك ولجأوا إلى استعمال الخديعة وهداهم التفكير إلى أن الفلاحين منهم اعتادوا فى رأس السنة حمل هداياهم إلى الحكام المقيمين بتلك القلاع ، وأن ذلك اليوم هو أنسب الفرص للبدء فى التنفيذ .

فلما تنفس الصبح كان الجمع قد فرغ من عملية التنظيم والترتيب وآن أوان انصرافهم ، فوجه اليهم ستوفاشر القول :

« على كل فرد منكم أن يحزم أمره ، ويكتم سر ماتم بيننا عن بقية المواطنين وأن يحرص كل واحد منا على سلامة قطعانه. وأن يضم إلى صفوفنا سرا من يثق بهم ، وأن يحتمل ماينزل به من ظلم حتى ذلك اليوم الموعود ، الذى نصفى فيه حساب الوطن ، وحساب الأفراد دفعة واحدة إن شاء الله » .



الزعماء الثلاثة فى روتلى

الفصل الرابع

تل والقبعة

كان وليم تل يقيم بقرية صغيرة تسمى (برجلن) تقع على مقربة من التدروف وكان تل صهرا لوالترفرست ، وكان له من قرينته (هدوج) ولدان أكبرهما يدعى وليم ، وعمره عشر سنوات ، وثانيهما يسمى والتر . ولم يكن يتجاوز السادسة .



وليم تل وأسرته

لم يكن وليم تل بصاحب ثراء ولا بمالك عقار أو ضياع ،

لا بل هو لم يكن يملك حتى ولا قطيعا واحداً من الأغنام أو الماشية وإنما كان يعتمد فى معايشة ومعايش أهله على ما كان يقتنصه من صيد البر ولقد مهر فى ذلك حتى ملأت شهرته أجواء سويسرا برمتها فلم يعد إلى أهله مرة خائبا ، بل كان كلما اعتزم الصيد يجوب الوديان . ويتسلق شاهق الجبال معرضا نفسه لشتى الأخطار فى البحث وراء الوعل وغيره من الصيد ، حتى يظفر بما يريد فيقتنص منه ما يشاء ، ويعود إلى أهله ، وقد تحمل بما يزيد على حاجتهم ، وذاع صيت تل وقدرته على إحكام الرماية ، حتى كان الناس يتحدثون عن أنه لا يطيش له سهم ، كيف لا ، وآخر عهد القوم به ، أنه فى عيد من أعياد القرية شطر بسهمه تفاحة على غصن شجرة ، كانت تبعد عنه مائة خطوة تقريبا .

وإلى جانب ذلك التفوق النادر فى الصيد برا ، فقد كانت له شهرة فى صيد الأسماك ، ودراية نادرة على قيادة القوارب ، حتى وقت العواصف المائجة والأمواج الهائجة .

وكان طبيعيا أن رجلا له هذه المنزلة بين قومه لا يظفر بحقد جسلر عليه . والواقع أن جسلر كان يعض عليه الأنامل ، ويتربص به الدوائر من ذلك مافرضه عليه من غرامة فادحة

فى مخالفة بسيطة لأحد أوامره ، وكانت هدوج شديدة الحدب على زوجها ، فكانت إذا تأخر ليلة عن موعد حضوره ، تقلقها الهواجس ، ويزعجها الخوف عليه من أن يكون قد وقع فى قبضة النمسويين ، وأودعوه غياهب السجن بقلعة ألتدورف .

وفى يوم من أيام ديسمبر أسر تل إلى زوجته ، أنه ذاهب إلى صديقه وصهره والترفرست فلم تقو الزوجة على كتمان خوفها ، وترقرقت فى عينيها دمعة ، ثم قالت : «أستحلفك بربك ياوليم ، أن تؤجل ذهابك إلى التدورف إلى موعد آخر ؛ فالحاكم مقيم بها الآن ؛ وهو يبغضك أشـــد البغض ؛ وأنت تعلم ذلك ، والأفضل ألا يلقاك أو يسمع بوجودك بها».

فقال تل :

« ولم هذا القلق ياعزيزتى ؟ إنى لا أرتكب مخالفة للقانون ، ولا أنا خارج عليه ، فلم أخشى مقابلة أحد كائنا من كان ؟ »

فأجابته هدوج :

« إن أبغض الناس إلى جسلر ، هم المستقيمون من أمثالك ، لأنهم يحرمونه فرصة الإيقاع بهم . »

فقال لها مطمئنا :

« تأكدى يا عزيزتى ؛ أننى باذل قصارى الجهد ؛ حتى لا ألقى الحاكم . »

وبينما هو يحمل جراب سهامه وقوسه ، ابتدرته بالقول: « لم تأخذ هذا الجراب ، اتركه هنا . »

فقال : « اعتاد الناس أن يرونى وهـذه الأشياء ، فلو رأونى بدونها أمطرونى وابلا من الأسئلة التى لا مغزى لها » . وعندئذ قطع عليه حبل الاسترسال صوت رقيق هو صوت والتر أصغر ابنيه يسأله إلى أين هو ذاهب فأجابه الوالد : « إلى ألتدورف لأزور جدك ، فهل لك فى صحبتى غرض ؟ » وكان ذلك العرض من جانب تل بغية ينشدها الطفل فبادر إلى توديع والدته بطبع قبلة على ثغرها ، وأشفع ذلك بقوله: « اطمئنى يا أماه فسأسهر على سلامة والدى » وسار الوالد وابنه مهرولين صوب ألتدورف ، وكان الابن بين لحظة وأخرى يستوضح أباه الخبر عن بعض ما يصادفهما فى الطريق من أناسى ومعالم ، حتى إذا

تل وابنه والتر

بلغا المدينة خفت أسئلة الصغير، لكثرة ما كان يمر به من مناظر، وبذلك اتسع الوقت لوليم تل أن يركز الفكر فيما هو أهم وأسمى. ذلك هو الاجتماع بالرفاق بالمدينة لاستكمال بعض نواحي البحث فيما هم مقبلون عليه، وإذا به وفكره شارد فى هذه المسائل، يمر بميدان السوق، حيث القبعة وريشتها، فلم يلحظها، حتى إذا جاوزها، سأله الصغير عنها، ولم يكد الابن ينتهى من سؤاله، حتى تقدم أحد الجنود النمسويين — وقد لاحظ أن تل لم يحيّ القبعة حسب الأمر — وقال له:

« باسم الامبراطور أستوقفك! »

فأجابه تل:

« أنا ذاهب إلى عمل هام، ورجائى أن تتركنى وشأنى ».

فقال له الجندى:

« لن أتركك حتى تحيي القبعة، إطاعة لأمر جلالة الامبراطور. »

فقال تل:

« إن جلالة الامبراطور لم يصدر أمراً كهذا، فدعنى وشأنى. »

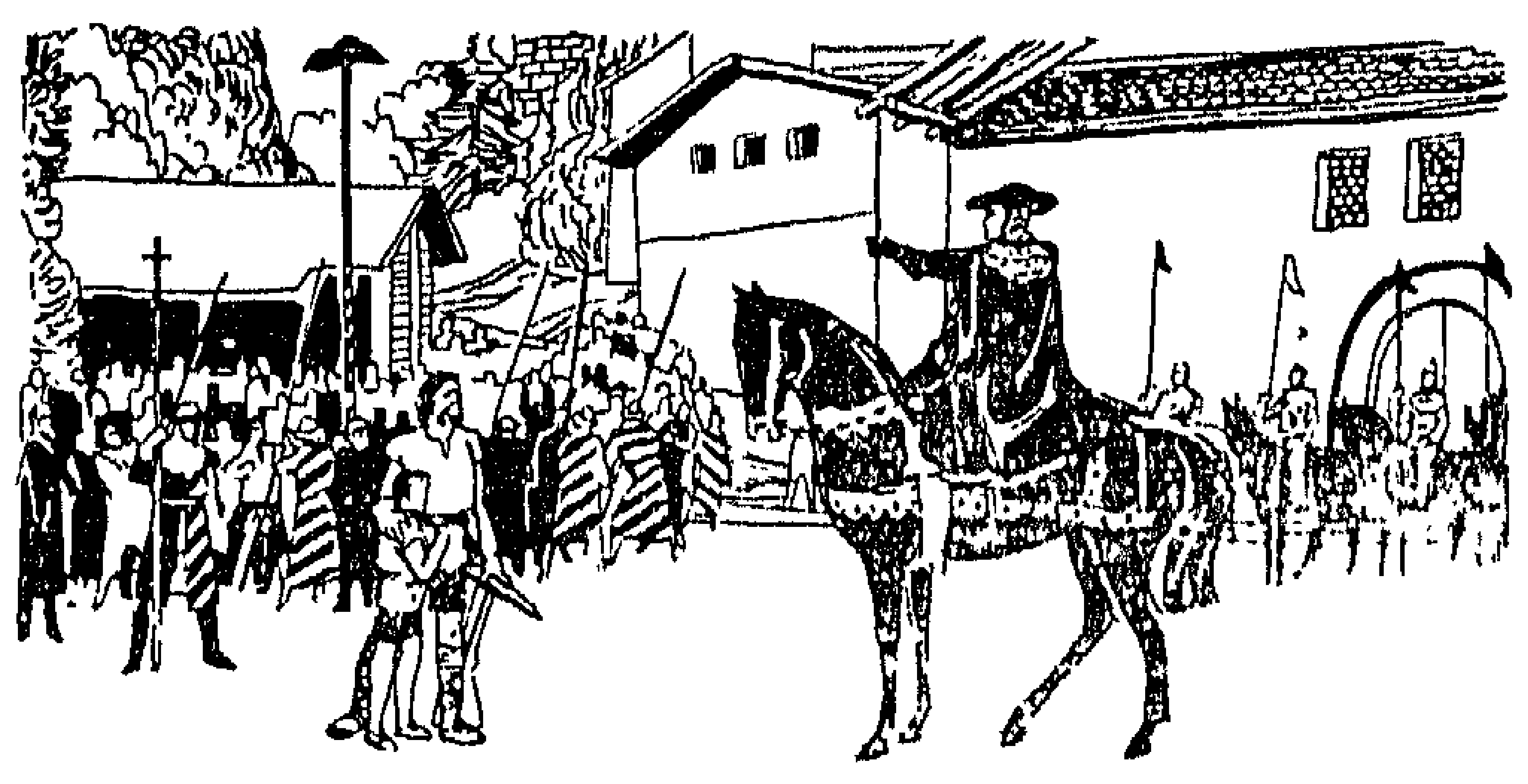
فقال الجندى:

« أترفض الصدع بالأمر، إذن إتبعنى إلى السجن. »

فقال تل :

« لو أن الامبراطور هنا لانحنيت إجلالا لمقامه السامى ، ولكننى لن أنحنى لقبعة . »

وفى أثناء هذا الأخذ والرد، كان الناس يتجمعون، وتحمس البعض وحاول تخليص وليم، غير أنه دعا القوم إلى التزام الهدوء والسكينة ، وخشى الجندى أن يتكاثر عليه الناس ، ويخلصوا فريسته ، فاستنجد بزملائه ومن حسن حظه أن كان موكب جسلر قريبا منه ، إذ كان عائداً من رحلة صيد ، فلما اطلع على الآمر ، سار نحو الجندى وسأله : « ما الخبر ؟ » فقال وهو ممسك بتلابيب تل : « إن هذا الرجل رفض إطاعة أمرك ولم يحي القبعة . » فدهش جسلر لوجود من يجسر على ذلك ،



وليم تل أمام جسلر والى اليسار قليلا تظهر القبعة

وسأل عن اسم المخالف ؛ فلما نبئ به ، نظر إلى تل نظرة ازدراء وقال :

« إنك بهذا الموقف ، يا تل ، تعصى أوامر الامبراطور وأوامرى فأنا الذى أمثله هنا ، وستدفع ثمن عصيانك باهظا . »
ثم أطرق قليلا وقال :

« يزعمون أنك ماهر فى الرماية ، وأنك تتحدى جمع الرماة . »

فأجاب ابن تل على الفور : « نعم يا سيدى ، هذا حق إن أبى يمكنه أن يشطر بسهمه تفاحة على شجرة تبعد مائه خطوة . » فقال جسلر لتل : « أهذا ابنك ؟ » فقال نعم فسأله هل لديك غيرة من الأبناء ؟ فأجاب : « لى غلام آخر » فقال جسلر : « وأيهما تخصه بأكبر قسط من حبك ؟ » فقال تل وهو يمسح بيده رأس ولده : « هما فى منزلة واحدة يا مولاى » فقال جسلر : « حسنا ، لقد سمعت كثيراً عن مهارتك فى الرماية ، وأود أن أشهد ذلك بنفسى . وعقوبتك أن تطلق سهمك على تفاحة من فوق رأس ولدك هذا ، وهما على مائة خطوة منك » ثم أردف ذلك متهكما . « أظن ن رأس ولدك أثبت من غصن الشجرة الذى قد تعبث به الريح » .

فانقبض وجه تل وقال : « إنك لتطلب إلى أمرا عجبا، بل مستحيلا يا سيدى ! » فكرر جسلر الأمر وقال : « إن بطلا مثلك ينبغى له أن يهزأ بمثل هذا الأمر ، فاستعد للتنفيذ! » فكان جواب تل: « الموت أحب إلى مما تدعونى إليه .» فقال جسلر: « لا تظن أنك بقولك هذا تفتدى ولدك فإنكما تموتان معا ، إذا لم تنفذ ما أمرتك به ، وعليك أن تحكم الرماية لتنجو أنت وابنك معا . »

فلما رأى تل إصرار جسلر قرر أنه من الحكمة أن ينزل عن كبريائه ويتوسل إلى الطاغية ، عسى أن يعفيه من هذه المغامرة التى قد تنتهى بموت إبنه ، فقال بصوت متهدج: «لم أهمل تحية القبعة عن قصد يا سيدى ! فاغفر لى هذه الهفوة ، ولن يفوتنى أداء التحية لها مستقبلا . » فرد عليه جسلر : « ولم تحمل آلة القتل هذه ؟ إن السهم يجب أن يرتد إلى نحر راميه وليس لأحد أن يتسلح غير أولى الأمر هنا، وإذا كنت تستمتع بحمل السهام فما أمرتك به يتفق تماما مع مراميك . وجزاؤك إن أحسنت الرماية عظيم !» ثم التفت إلى جنوده وقال:«اربطوا هذا الغلام فى تلك الشجرة » وسرعان ما تم ذلك . فلما حاولوا

تعصب عينيه رفض بإباء وشمم ، ثم وضعت التفاحة على رأسه .

أمام ذلك المنظر الرهيب وقف وليم تل ، زائغ البصر ، شارد الفكر يكاد يسقط إلى الأرض من هول ما يرى. وأمر جسلر بإبعاد الجمهور وإفساح الطريق للسهم ، وبعد أن قيست المسافة ، اقتيد وليم تل ليقف حيث يرمى بسهمه .

وقف تل فترة قصيرة ، تختلج فى صدره أشد الآلام والحسرات ، وتنتابه الهواجس المؤلمة المرة، ولكن خاطراً طرأ فأنزل السكينة على قلبه ، فبادر إلى إخراج سهمه من جرابه ، وبعد أن فحصه وضعه فى حزامه، وأخرج غيره وثبته فى قوسه ثم تأهب للرمى ، وعلى حين فجأة أصابته رعدة ، كأنما نزلت به نازلة ، فسقط القوس والسهم معا من يديه .

وسط السكون المخيم على الجمهور الغفير الذى وقف محتبس الأنفاس كأن على رأسه الطير ، قال الغلام : « أنفذ السهم يا أبتاه فلست خائفاً ، وأنا واثق من أنك ستصيب التفاحة ! » فتأثر النظارة أيما تأثير، وترقرقت الدموع فى المآقى، وتعالت التنهدات من صدور الجميع، إلا وليم تل، الذى وقعت كلمات صغيره بردا

وسلاما على قلبه فاستعاد القوس والسهم ، وفى لمح البصر سمع صفير السهم يخترق الهواء ، وانشطرت التفاحة نصفين ، وغار السهم فى الشجرة ، وتنفس تل نسيم الارتياح ، وتعالت أصوات الناس بالهتاف والإعجاب ، وحمل الجند التفاحة إلى جسلر ، فقلبها بين يديه ، ثم قال : « جميل ! شجاعة فائقة ! » أما تل ، فقد جمد فى موضعه ، لا ينطق لسانه بشىء ، ولا تتحرك يداه ، كأنهما التصقتا بالقوس وحل وثاق الصغير ، فجرى نحو أبيه وهو شديد السرور بسلامته والإعجاب بما أبداه أبوه من مهارة فى الرماية ، وما إن لمس أباه حتى احتضنه بيديه الصغيرتين ، وقال : « أو لم أقل لك إنك ستصيبها ؟ لقد كانت رمية بارعة ! » وعندها أفاق وليم تل من سكرته ، فاحتضن فلذة كبده ، وقبله والدموع تنهمر على وجنتيه .



التفاحة وقد انشطرت

وفى أثناء ذلك كان جسلر ، بخبثه ولؤمه ، يفكر فى فخ آخر

ينصبه لتل ، فقال : « لقد كانت رمية موفقة، تستحق من أجلها الثناء . ولكن ماخطب السهم الذى ثبته بحزامك ؟ » فقال تل : « تلك عادتنا معشر الرماة ، نهيء دائماً سهما آخر . » فقال جسلر : « ليس هذا تعليلا كافيا ، فقل الحق ولا تخف ، فإنى أعدك ألا أمس حياتك بسوء فقال تل ، وقد نظر اليه نظرة الاحتقار : « ما دام الأمر كذلك،فالحقيقة أنى أعددت السهم الثانى لأرميك بهلو أن السهم الأول طاش فأصاب ابنى وأؤكد لك أن سهمى الثانى ما كان ليخطىء قلبك ! » فقال جسلر ، وقد بدا عليه الغيظ والاضطراب : « وعدتك الحياة ولن أخلف وعدى ، ولكنك ستحيا فى زنزانة لا يدخلها النور أو الهواء لقاء فساد نيتك نحوى . »

فشد الجند وثاق تل ، ورأى جسلر أن يكون سجنه بعيداً عن ألتدروف خشية التآمر على إنقاذه من جانب أهلها فأمر بأن يحمل إلى كوسناشت .

وبينما تجرى تلك الحوادث ، حمل بعض معارف وليم تل النبأ إلى والترفرست فحضر من فوره ، واستمع إلى أمر جسلر بسجن زوج ابنته فى كوسناشت، فارتفع صوته بالاحتجاج ،

وقال : « سيدى ، إن من القوانين المرعية عندنا ألا يندحن مواطن فى غير مقاطعته فإذا كان وليم مذنبا فيجب أن يحاكم ، وتنفذ عليه العقوبة هنا . »

فأجاب جسلر : «ليس لأحد أن يشير على بما يجب اتباعه، وأول قانون يتحتم على أهل هذه البلاد أن يرعوه هو الخضوع لإرادة الامبراطور التى تتمثل فى إرادتى . »

ولوى بعدها عنان جواده ، وأشار إلى أتباعه أن يجرّوا خلفه تل صوب قرية فليلن (Fluelen) على شاطىء البحيرة ، حيث كان ينتظره قاربه .

حدث ذلك كله والدموع تنهمر مدراراً من عينى والتر الصغير حتى إذا تحرك الركب ، أراد مرافقة أبيه ، فمنعه الجند فى غلظة وقسوة وتابع الموكب جمع غفير من سكان ألتدورف وقد امتلأت نفوسهم سخطا واستياء على الطاغية ورجاله .

وعندما وافوا البحيرة، ألقوا بوليم تل موثقاً فى قاع القارب ورموا بقوسه وجراب سهامه إلى جنب دفته ، وتصدر جسلر القارب وأخذ المجدفون أماكنهم وبدأ القارب يتحرك وماهى

إلا دقائق معدودات حتى صار القارب نقطة صغيرة على سطح البحيرة الأزرق وعندها ارتد أهل ألتدورف إلى مدينتهم ، وقلوبهم محطمة ، ونفوسهم ثائرة ، فعزموا على الانتقام من الطاغية ، وأخذ من شاهدوا اجتماع روتلى منهم يستعجلون يوم الجزاء .



الدورف Altdorf

الفصل الخامس

نجاة وليم تل

تتعرض البحيرات السويسرية عامة ، ولوسرن خاصة ، إلى العواصف الشديدة التي تهب عليها فجأة ودون سابق إنذار ، وغالبا ما تكون تلك العواصف بالغة من الشدة مبلغا يسبب قلق السويسريين ، وذلك ظاهر فيما يعزونه إليها من أحداث تثير الرعب والخوف فى النفوس ، وما يعدونه لها من عدة واحتياط ، وريح الميدى (وهي أشد هذه الرياح خطرا) لا تكاد تحل بأرجاء سويسرا ، حتى يبادر القوم ، عملا بتقليد قديم ، إلى إطفاء النيران داخل المنازل وخارجها ، اتقاء لشرور الحرائق التى تهدد تلك المساكن الخشبية ، وريح الفهن يعرفها بحارة البحيرات جيداً ، وكثيراً ما تهب على لوسرن ، فلا ينجو من شرها قارب غير مُحتَمٍ بالشاطىء وويل لبحار يجهل مواطن الصخور على الشاطىء ، فإن قاربه لا شك محطم ، عندما يبادر إلى الالتجاء إليه .

* * *

جرى القارب بجسلر ومن معه حتى منتصف البحيرة ، ثم هبت الفهن بشدتها ، فأخذ القارب يتأرجح ، وتتقاذفه الأمواج ، كأنه ريشة فى مهب الريح ، خاصة وأن صاحب الدفة كان قليل الالمام بعمله ، جاهلا تمام الجهل بمواطن الخطر ومواضع الأمان التى يعمد إليها الخبيرون عادة ؛ وبدلا من أن يواجه الريح بالشراع ترك القارب تسيره الريح كيفما هبت ، وذهبت جهود المجدفين سدى ، وتمايل القارب يمنة ويسرة ؛ وانحط فيه الماء المتطاير من الأمواج المتلاطمة على جانبيه ؛ وخيل لركابه أن الساعة قد أزفت ، وأنهم مستقرون فى قاع البحيرة عن قريب.

هذا وجسلر يحاول أن يتقى البرد بمعطفه ، وبدت له النهاية المفجعة فصار يرتجف من هول ما هو فيه على حين كان تل يهتز مع القارب ولا يدرى ما يحدث حوله ، فقد تركز فكره فى زوجه وولديه وما قد يصيبهم فى مستقبل الأيام ، أما الموت المحقق ، الذى كان ينتظره فلم يكن يشغله لأن غرقه سيتم ، وفى صحبته جسلر ، وما دام هو وخصمه سيلقيان مصيراً واحداً فقد كان الموت هكذا أحب الأشياء إلى نفسه .

وعلى حين غرة ، إلتفت أحد المجدفين إلى جسلر وقال : « مولاى إنك لترى ما نعانيه ، ونحن جميعاً على وشك الغرق ، وهنا رجل فى مقدوره أن ينقذنا » . فتلقف جسلر العبارة ، وسأل عن ذلك الرجل ، فلما أجيب بأنه تل ، أمهر نوتية مقاطعة أورى ، وافق على أن يحل وثاقه ، وأمره بالقيام بتوجيه القارب إلى بر السلامة .

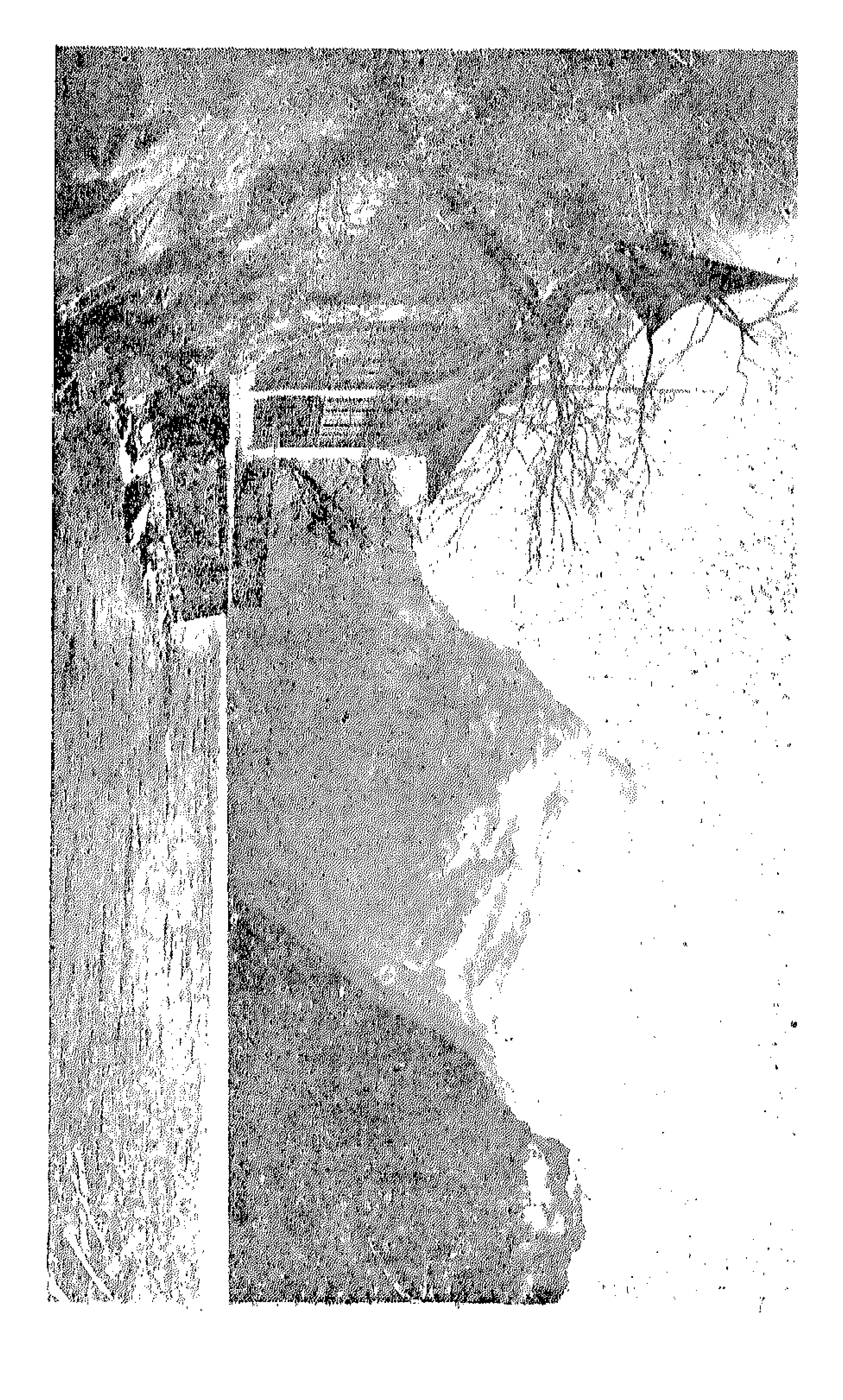
وجد وليم تل الفرصة سانحة للتخلص من الوثاق ، وربما الإفلات من السجن فلم يمانع فى تنفيذ الأمر ، وعلى الرغم من شدة الريح استطاع أن يقود القارب بسلام .

ولما كان المجدفون قد أولوه ظهورهم ، فقد دبر طريق الهرب ، وقاد القارب إلى حيث يتمكن مثله من القفز بسهولة دون أن يصاب بضرر ، فلما وصل إلى حيث أراد — حيث الصخرة المعروفة حتى اليوم باسم تلز بلات Tell's Platte — قفز إليها بخفة فائقة ، حاملا معه قوسه وسهامه ، راكلا القارب بقدمه ركلة قوية أبعدته عن الشاطىء ، حتى لا يسهل اللحاق به . وجرى بعيدا عن القارب والشاطئ غير ملق بالا للعقبات



تل عند نجاته من قارب جسلر

والشتائم من أفواه أولئك ، الذين علقوا نجاتهم عليه ومن بينهم الطاغية جسلر ، ولما كان النمسويون يجهلون طبيعة تلك البلاد لم يجسر أحدهم على اللحاق بوليم ، وأخذوا يتحسسون طريقهم إلى الشاطئ ، حتى وصلوا إلى بقعة ملائمة للنزول قرب شويز .



كنيسة صغيرة أقيمت في القمة التي تقف الآن ولم تزل تذكاراً للحادث

الفصل السادس

مصرع جسلر أو السهم الثانى

أفلت وليم من مخلب الطاغية ، جسلر ، ولكن هل كان يعد نفسه ناجياً بالفعل من شرور خصمه اللدود ؟ فكر تل ملياً فى ذلك ووجد أنه لا استقرار له إلا إذا صان زوجه وأبناه من عاديات جسلر وانتقامه ، فقد ظل ماثلا أمام عينيه ما حل بملشتال ، بسبب ما فعله ابنه ، وأيقن أن جسلر لابد فاعل بأهله مثل ما فعله برنجيه بملشتال، هذا ولم يكن فى طوق تل أن يتخلص من صورة ولده وهو مربوط إلى شجرة ، وعلى رأسه تفاحة ، فثارت ثائرته ، وتأكد من أن هذه القسوة التى أملت على خصمه ألا يرحم الصغير لا تتورع أن تعود مرة أخرى للإيقاع بزوجه وطفليه . ولقد جرته ثورته النفسية إلى التفكير فى غيره من آلاف السويسريين ، الذين وقعوا تحت طائلة ظلم الغاصب دون أن تأخذه بهم رحمة .

وكان أول واجب على تل بعد إفلاته أن يحوط أسرته بحمايته وكان يعلم أن جسلر سينزل عند برونين ليتجه منها

إلى كوسناشت ، لذلك وعلى الرغم من إعيائه الجسمانى ، وآلامه النفسية أسرع الخطى إلى غابة تقع عند منحنى الطريق بين المدينتين ، ليتمكن من التربص بالطاغية ؛ وفى هذه الغابة كمن يراقب المارة بالطريق ، من مشاة ورعاة وتجار ، وبينما هو شارد الفكر إذ لفت نظاره مرأى امرأة عليها أمارات البؤس والفقر ، وقد اصطحبت أطفالا خمسة ، أضناهم التعب وعضهم الجوع وآذاهم البرد . وقفت على قارعة الطريق ، كأنما هى فى انتظار قادم ، فتاقت نفسه إلى معاونتها وإذ هو يفكر فى وسيلة يعاونها بها ، سمع وقع حوافر خيل ، فأرهف السمع ، ونظر ناحية الصوت ، فاذا به يرى جسلر على رأس بطانته ، يتحدث إلى فارس بجواره . وعندما اعترضت المرأة وأولادها طريق الركب مستعطفة مستجدية ، أمطرها القوم انتهارا وغلظة ، وأمرها جسلر بافساح الطريق ، فأجابت المرأة بأن أبناءها لم يطعموا زاداً منذ أيام ، لأن أباهم سجين وطلبت إليه فى توسل يذيب الصخر الجمد ، أن يعفو عن أبيهم ، أو أن يطعم صغارها ، ومع ذلك فلم يرق جسلر الذى كان قلبه من الحجارة أو أشد قسوة لهذا المنظر المؤثر ، بل أمر الجند أن يجروها

بعيدا عن جواده ، الذى تعلقت به المرأة ، وأمسك بلجامه ليهوى به على رأسها ، فلم يمهله تل ليفعل فعلته تلك ، بل أنفذ سهمه سريعاً إلى صدره ، فهوى صريعاً ، ويده على موضع السهم وعندئذ صرخ تل صرخة مدوية، تردد صداها فى الفضاء يخاطب جسلر: « أنك لتعرف من رماك ، أيها التعس البائس ، فلا تبحث عن سواه ، والحمد لله ، أن لم يطش سهمى الثانى . » ولكن هذه الصرخة ذهبت هباء ، لأن جسلر مات لوقته ، ووقف جنده يرتعدون فرقا من الرجل الذى كان أسيرا بين أيديهم قبل ذلك بساعات . ولم يفكر أحد منهم أن يعترض تل ، أو أن يطارده لئلا يصيبه ما أصاب سيده ، وقنعوا بحمل جثة جسلر إلى برجلن .

وخاف ولنيم تل أن يقع فى فخ ينصبه له النمسويون فى برجلن ، فاتخذ طريقه فى الغابة إلى شويز حيث وجد ملجأ أمينا بين أصدقائه وعند ستوفاشر .

ولم يمر على الحادثة زمن طويل ، حتى كانت تتردد أنباؤها على ألسنة الناس فى القرى والمدن السويسرية ، وتضخمت كلما

بعدت عن مسرحها ، وأضفى عليها خيال الرواة كثيرا من التنسيق والتنميق حتى غدت روائية المظهر وعدها الكثيرون معجزة وفألا حسنا ، لما يتوقعه السويسريون لجهادهم القريب الأجل فى سبيل الحرية .

الفصل السابع

يوم الهدايا

لا نخالك نسيت ما قد انعقد عليه رأى المجتمعين بروتلى ، وقرارهم أن يكون آخر يوم من أيام ديسمبر ، حين يهرع القرويون بالهدايا إلى الحكام، موعدا لاقتحام القلاع النمسوية والاستيلاء عليها عنوة من الجند النمسويين .

كان الجنود النمسويون يبسطون سلطانهم على الأقاليم الثلاثة، وما فيها من قلاع حصينة منيعة أعدت إعداداً فائقاً ، ومن هذه القلاع قلعتا روزبرج (Roseberg) وسارنن بأقليم انترولدن ، وقد زاد فى منعتهما خندق عميق واسع حول كل منهما

فى قلعة روزبرج وهى ثانية الأثافى فى انترولدن كانت تعيش أنيلى ، وهى فتاة قروية يتيمة الأبوين ، كخادمة بها ، وكان قد خطبها فتى من الرعاة يقال له ججلى ، الذى دخل فى زمرة المجاهدين وكان من عادته أن يزورها بالقلعة بين الفينة والفينة فآنس فيها بغضا شديداً للنمسويين ، وحبا أكيدا لوطنها والسويسريين .

عرف ذلك وتأكد من إخلاصها فأسر اليها بما تم فى روتلى

وعرض عليها أن تكون مساعدة له ولزملائه ، فرحبت بالدعوة وأكدت أنها لن تدخر وسعا فى بذل أقصى ما تستطيع ، وأن دمها فضلا عن كل مالها فى الحياة فداء للحرية وأبطالها . ارتاح ججلى لما تكشفت عنه حقيقة خطيبته ، فأكثر من زيارتها وحمل إليها فى كل زيارة حبلا قويا لتحتفظ به إلى أن تحين ساعة العمل وهكذا اجتمع لدى الفتاة عدد كبير من هذه الحبال التى حفظتها فى حرز مكين ، لا يعرفه أحد سواها .

* * *

وطلعت شمس الحادى والثلاثين من شهر ديسمبر ، والفتاة تنتظر بفارغ الصبر نهاية ذلك النهار لأن ساعة العمل لتحرير وطنها كانت منتصف ليله ومرت الساعات عليها طوالا كأنها الأسابيع والشهور حتى إذا غابت الشمس تحت الأفق جلست إلى نافذة حجرتها ، تنظر إلى الظلام المخيم ، وتتفقد الرائح والغادى وأسدل الليل ستاره ، وجاءت الظلمة الحالكة والفتاة لا تزال أمام نافذتها وأطفئت جميع الأنوار بالقلعة ونامت عيون الحراس والرقباء جميعها والفتاة ما زالت فى انتظار

الوقت المعلوم وأعلنت ساعة القلعة منتصف الليل نخفق قلبها لأن ساعة التنفيذ حانت.

أخذت الفتاة حبالها ودلتها من النافذة ، بعد أن ربطت أطرافها بعضها ببعض ربطاً متيناً ، ثم شدت نهايتها إلى قضيب من الحديد ، مثبت بداخل الحجرة ، بعد ذلك وقفت ، تسمعت ، أنصتت ، ثم أرهفت السمع فإذا بهمس خارج القلعة ، حبست أنفاسها لحظات ، كأنها ساعات ، وأمسكت بيدها الحبل المدلى ، فشعرت به يشد ، فانبسطت أساريرها ، إذ علمت نجاح تدبيرها وبعد قليل كان ججلى إلى جانبها بالحجرة يحييها تحية الوطنى المخلص ، ويهمس فى أذنها : «كل شىء على مايرام» وتلاه آخر وآخر حتى اكتمل عقدهم عشرين رجلا .

وبإشارة من ججلى ، فتحت أنيلى باب حجرتها ، وقادت هؤلاء الأبطال إلى طرقات القلعة وحجراتها ، ومنها إلى المدخل الرئيسى ، حيث وقف حارسان فأوثقوهما ، وأشفعوهما بغيرهما من رجال الحامية ثم أطلقوا سراح المسجونين ولما أتموا ذلك ، أشعلوا النار فى قمة القلعة — إشارة ، اتفقوا عليها لإعلان سقوط قلعة روزنبرج .

ولكى يتم لهم أسر أكبر عدد من النمسويين ، تركوا الأعلام النمسوية تخفق على القلعة . فلما طلع النهار كان النمسويون يفرون من وجه الثائرين ملتجئين إلى القلعة ، حيث يتوقعون حمايتهم وما كانوا ليدخلوها ، لولا أن رأوا العلم النمسوى يخفق عليها . وكان كلما جاءها فوج منهم وقع أسيراً فى قبضة السويسريين . وكذلك انتهى أمر النمسويين بروزنبرج .

أما سارنن ،، ر الحاكم ، فقد غادرها برنجيه أول يوم من يناير فى موكب حافل من القلعة، للصلاة بكنيستها ، وقد ارتدى أبهى الحلل ، وأحاط نفسه بجمع خفير من الجند المدججين بالسلاح ، يتقدمهم فارس يحمل العلم النمسوى ، ومن خلف هذا الجمع سار فريق من الفرسان والأعيان .

شاهد برنجيه ، عندما وصل إلى القرية جموعاً خفيرة ميممة شطر القلعة يدفعون أمامهم ماشية وأغناماً وخيلا محملة بالحبوب والطيور ومختلف المؤن ، فسأل عن مغزى ذلك فأجيب بأنها العادة الجارية فى رأس كل سنة ، فسكت وفى نفسه ، ما فيها من دخيلة وريبة ، فقد كان ظل قسوته وغدره يلازمانه فهو لا يطمئن على نفسه ، ويخشى الغدر والخديعة ، وذلك تأويل

أمره ، بألا يدخل عليه رجل يحمل سلاحا . ولكنه وقد رأى الفلاحين الميممين شطر القلعة يحملون عصيا فقد سمح لهم فى كثير من التردد بالمضى فى طريقهم ؛ ولكن هذه العصى لم تلبث أن تحولت إلى حراب عندما كان أصحابها بداخل القلعة ، ثم عملت الحراب فى حاميتها حتى انهزمت بفضل المفاجأة والتفوق فى العدد . وعندما تم تسليم الحامية ، سارع أرنولد ملشتال إلى أعلاها ، ونفخ فى بوقه معلنا بدء الثورة ولم يكد ينتهى من هذه العملية حتى كانت النار تأكل القلعة وتتلف كل ما فيها .

قضى الأمر فى القلعة وبرنجيه يصلى ولا يدرى من أمر قلعته شيئاً وعندما كانت الصلاة فى آخر مراحلها سمع المصلون صوتاً مضطرباً يقول لبرنجيه « الغدر ياسيدى ! سقطت قلعة سارنن فى يد الفلاحين غدراً وخيانة، وهى الآن طعمة للنيران ! » فقال برنجيه « أصدق ما تقول أم بك مس من الجنون ؟ » فقال المتحدث :

« صدق كل ما قلته ياسيدى ، وأقسم لك على ذلك » . ثم قال بصوت خافت : « أتسمع ! هذه صيحات الثوار » فاكفهر وجه برنجيه ، وانهارت نفسية النمسويين معه ، وهرول الكل

نحو باب الكنيسة ، فصاح الصوت الأول : « الهرب من طريق القلعة غير ميسور يا سيدى ، فقد سده السويسريون والأجدر بنا أن نسرع إلى الجبال ، فإنى أعرف فيها مسلكا يسهل لنا الفرار منه رغم وعورته » . فقال برنجيه ، وقدهجرته كبرياؤه ، واستسلم للقدر : « حياتنا بين يديك فسر بنا إلى النجاة ! » .

وكذلك أصبح برنجيه مع النمسويين الآخرين شريداً طريداً ، وكان من ساعات سيداً مطاعاً ، فويل للظلم وذويه والطغيان وأنصاره . فإن يد الله لا تهملهم ولكن تمهلهم ، عسى أن يتوبوا ويندموا ، فإذا استمرأوا الشر واستباحوا الحرمات فإن الله لا يظلم الناس ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون .

هرب برنجيه وأعوان الظلم ، مروعين مذعورين كأنما يطاردهم وحش البر أو شياطين الجن ، وهم الذين كانوا بالأمس يصعرون الخدود ويمشون فى الأرض مرحاً ، مزهوين ، مفتونين ، وكذلك يغير الله حالا بعد حال .

هربوا ، نعم طلبوا النجاة فهربوا من وجه أبناء سويسرا الغر الصناديد والأبطال الأماجد ، الذين قاموا قومة رجل

واحد لمجالدة الطغيان والطغاة ، ومسح غشاوة الظلم عن أبصارهم . فكانت كلمة الحق هى العليا ، وزهق الباطل وانهارت القلاع النمسوية أمام تصميمهم فدخلوها وأعملوا فيها معاول الهدم والتخريب ، وتركوها طعمة للنيران تنعى من بناها . ولم يكن ذلك حظ قلعتى روزنبرج وسارنن فقط ، بل كان مصير القلاع كلها بما فى ذلك قلعة التدورف التى كانت على وشك الاكتمال.

فر برنجيه إلى الجبال ، ولكنه عجز عن التوغل فيها ، خوفاً من الثلوج المتراكمة والهيارات المفاجئة ، فقضى ورفاقه يومين حبيسها وهو أشبه بحيوان ضال لا يعرف مأوى ينتجعه ، ولا طريقاً يسلكه ، وليس معه طعام يتبلغ به ، وفى اليوم الثالث عمل البرد والجوع فى القوم عملهما ، فلم يجدوا مندوحة من التسليم للثوار ، وهكذا كان برنجيه وجهاً لوجه مع خصميه اللدودين ، هنرى ملشتال وابنه أرنولد .

* * *

فلنرجع الآن قليلا إلى الوراء لنذكر أن أرنولد ملشتال وهو فى بيت استوفاشر ، قد أقسم قسماً لا حنث فيه ، أنه لن يهدأ له بال حتى ينتقم لأبيه شر انتقام من ذلك الجلاد القاسى

القلب ، الذى سمل عينى أبيه ، وتركه فاقد البصر ، فهل بعد هذا النصر المبين ، وبعد أن أذل الله برنجيه وأنزله من سماء السيادة إلى أرض العبودية ، يصر أرنولد على أن يشبع غايته ويطفىء غيظه ، ويكيل لبرنجيه بمثل الكيل الذى كاله لوالده .

الظن كل الظن أن شاباً مثله ، امتلأ إخلاصاً وحباً لأهله ووطنه ، لاتجد المشاعر الانسانية أو العواطف والانفعالات البشرية فيه مدى تستقر عنده ولا يصيبه لوم إذا هو أفرغ مرارة نفسه على ذلك الخصم المتجرد من المشاعر الإنسانية . ولكن ما بال هنرى (الوالد) ذلك الشيخ . الذى قد هدأت فيه ثورة الشباب . والذى قد ذاق مرارة الحرمان من البصر ، بل والحرمان بما يملك ولولا أياد له بيضاء عند قومه لتلوى من الجوع والبرد وربما كان يلقى حتفه ، أيكون موقفه من برنجيه على مثل ما يكون موقف ابنه ؟ وهل يلام إذا أذاق الطاغية بعض ما أنزل به إياه وبقومه ؟ أليست السن بالسن ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والجروح قصاص ؟ كل ذلك كان هنرى يعلمه . بل يعلم كذلك أنه مبرَّر فى الأخذ باليمين ممن نكبه بأعظم ما تكون الجدة حقداً وحسداً وظلماً وعدواناً ،

بلا ذنب أو جريرة .

تلك مشاعر لابد من أنها كانت ماثلة عندما التقى الخصوم وأقل ما فيها أنها تترجم عما وقر فى النفوس . فذلك أرنولد يقول لبرنجيه هازئاً جاداً : « ها أنت أيها السيد الحقير تقف وقد تجردت من سلطانك . وإنى لأخالك إلاّ تساورك الهموم ويملأ قلبك الرعب مما قد يكون مدخراً لك . ألا فلتشرب من كأسك التى طالما جرعتها الأبرياء . ألا فلترتعد فرائصك ، بما قدمت لهذا اليوم ، عسى أن يكون فى ذلك تكفير لجرائمك التى لا يحصيها العد . لست أرى الموت عقابا لأمثالك إذ هو أمر هين تتخلص به من شبح الآلام » ثم أشار بيده إلى والده وقال : « أتعرف هذا الرجل العجوز؟ لا أخالك تنكره ! سلبته بصره وتركته أعمى وقد كان بصيرا ، أتستطيع أن تذكر له جريرة واحدة استحق عليها ذلك العقاب ؟ فان كنت تنكر معرفته ، ألم يكن ذلك بأمرك ؟ لا أريد أن أشق عليك ولا أن أكون طاغية ولكنى أصبر النفس إذا لقيت نفس الجزاء » .

وتحول عنه ببصره وقال كأنه يخاطب نفسه : « مساكين

هؤلاء الطغاة ، تتوارى شجاعتهم عند ما يزول عنهم السلطان ، ويفقدون اللب عند ما يقدمون إلى الحساب بعد ما يسقطون فيفضحون والفرائص منهم ترتعد خوفا وفرقا » .

وحقا كان برنجيه يحاول أن يستجمع قواه الخائرة فتخونه ، وإذا به يلتمس فى نبرات خافته ، وعبرات متساقطة ، العفو من الفلاح الحقير ! وعندها جرى ما لم يكن فى الحسبان ، وبرزت إلى الأمام صفات رجل كبير القلب ، جليل القدر عظيم النفس ، شهم فى بطولة ، ذلك هو هنرى ملشتال ، فإنه وقد تأثر بالموقف ، تقدم إلى ابنه فى طلب العفو عنه ، ذلك الطاغية الذى لم تأخذه به رحمة وقال : « ولدى ، أصدقائى ، مواطنى :

اطرحوا الرغبة فى الانتقام جانبا. وكفانا عزاءً أن حقق الله لنا النصر ومنحنا أعز أمانينا ؛ فلا تدنسوا نعمة الله بسفك دم آخر . إن كان هذا الرجل قد أساء إلى . فقد غفرت له ذنبه ؛ ورجائى أن تهبوه الحياة . على شريطة أن يترك بلادنا الى غير رجعة » .

هنالك وجد برنجيه وصحبه مجال القول فسيحاً ، فأقسموا وأغلظوا الأيمان أنهم لن يدخلوا سويسرا ثانية .

وكم كان أرنولد كريما عند ما نزل على رأى أبيه ، وسمح لبرنجيه وزملائه أن يقتادوا إلى الحدود المساوية .

الفصل الثامن

روتلى مهد الحرية

وهنا يجب أن نقف قليلا لنقدر تلك الروح العالية التى أملت هذا التصرف الفذ فى نبالته ، النبيل فى غايته ، عفو عن مقدرة: رجل أساء وآذى فى أعز ما يملكه الإنسان من بصر ومال وعتاد ، ومع ذلك فهو يلقى على يدى ذلك الذى أصابه منه الهم والذل صفحا لا انتقاما، وتسامحا لا تعذيبا وتشفيا، وعفوا لا تنكيلا وتعذيرا . ألا أكرم بروح كهذه لا تخضع للذل بل تثور للكرامة فى غير لغو أو تأثيم، حتى إذا ظفرت فى جهادها بالطاغية الأثيم ذكرت الله ولى النعم ، وأبت أن تدنس آلاءه بالمعصية وسفك الدماء .

* * *

بلغ سرور السويسريين بخلاصهم من الطغاة النمسويين واسترجاع حرياتهم القديمة مبلغا كبيراً ، وما كانوا على الرغم من هذا النصر المبين والسرور العميم لينسوا الاعتدال ، أو يغفلوا أمر مستقبلهم ، واحتمال معاودة الامبراطور تأديبهم على

ما فرط منهم . وهل تراهم أذنبوا ، وما كان منهم إلا أن تمسكوا بما كان مقرر لهم من حقوق وحريات ؟

وفى وسط كل هذه المشاغل لم ينس السويسريون أن يعظموا ذكرى الاجتماع الأول للزعماء ومكان اجتماعهم ، فإن هذا المكان وذلك الاجتماع قد ساهما فى وضع الأسس الأولى ، والقواعد الأصلية لاجتماع الكلمة والاتحاد فى سبيل الحرية ؛ وكيف يكون ذلك وهم لعهدهم راعون ، ولأماناتهم حافظون .

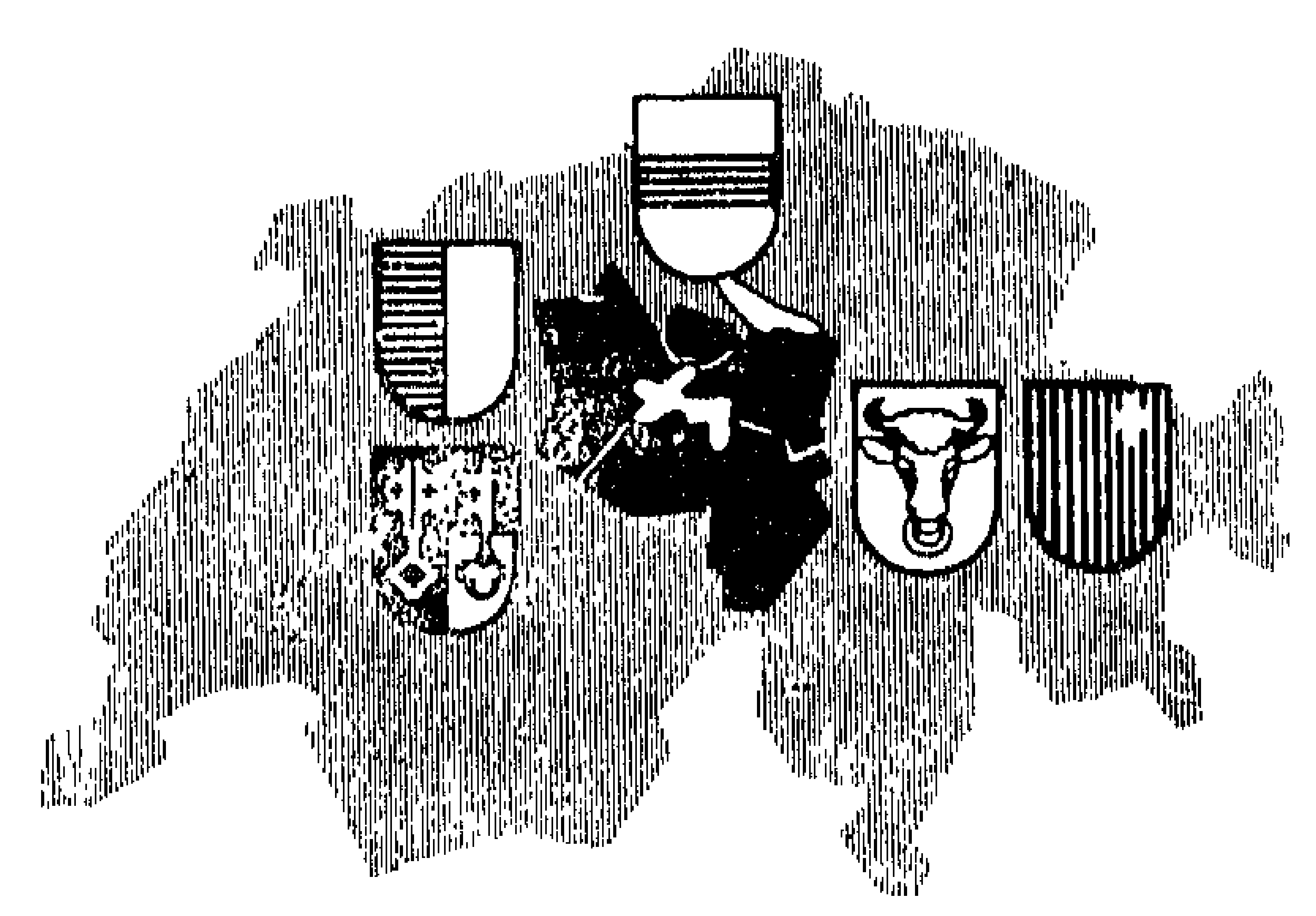
هم ذكروا إذن ذلك الاجتماع الذى تم عقده فى ٨ ديسمبر سنة ١٣٠٧ بشبه جزيرة روتلى خلسة فى سكون الليل ، إذ ينسل إليه الأبطال ، ويقررون الدعوة إلى الثورة والحرية .

ومن ثم هب السويسريون بعد أيام معدودات من نصرهم إلى روتلى علانية ، وفى وضح النهار ، وأعلنوها مهدا للحرية ، ورفعوا عليها أعلام المقاطعات الثلاثة ، وأولها علم أورى ، وفيه رسم لرأس ثور قد أدمى رقبته حبل المحراث ، وثانيهما علم شويز وفيه رسم للصليب ، رمزا للخلاص ، وثالثهما علم أنترولدن ، وقد زين برسم لمفتاحين اشارة للنصر المبين .

حضر وليم تل هذا الاجتماع ، فحيا المجتمعون فيه بطلا ،

أوحت رجولته بالاتحاد ، وأذكت شجاعته روح المقاومة ، وما بطر السويسريون نعمة النصر ولا أغفلوا أن أمامهم طريقا وعرا ، لا بد أن يسلكوه ، إذ أنهم يعلمون أن الامبراطور ما كان ليهمل الانتصار لعماله ، ولا ليترك الانتقام لرجاله وجنوده ، وعلى ذلك فقد تشاوروا وتداولوا فى هذا الاجتماع ووضعوا الخطط ، وأعدوا العدة لمواجهة الخطر من ناحية الامبراطور .

ولما كان الامبراطور آنئذ منشغلا عنهم بحروب أخرى ، فقد أكتفى السويسريون بأن يكونوا على أهبة الدفاع عند أول محاولة من جانب الامبراطور للانتقام منهم .



خريطة صماء لسويسرا وقد ظهر فيها شعار كل من المقاطعات الثلاثة
فى أعلى شعار زج والى اليسار شعار لوسرن

الفصل التاسع

يد الله فوق أيديهم

وصلت الأنباء إلى مسامع الامبراطور بما أتاه السويسريون مضخما، حتى حسبه جريمة منكرة، فاشتد غيظه، وتملك نفسه العزم على الانتقام. وكانت بطانته تحسن له كل عمل سيء، حتى أبغضه السويسريون والنمسويون على السواء وكانت هذه البطانة تبالغ فى تملق الامبراطور وتوقع ألحان الملق عذبة على أوتار أذنيه، حتى لم يعد يميز بين النفاق والحق. وكان أشد الناس كرها له ابن اخته الذى استولى الامبراطور على كل أملاكه.

ثار السويسريون عام ١٣٠٨، وعلم الدوق جان بن أخت الامبراطور بهذه الثورة، وكان قد بلغ العشرين، فطلب إلى خاله أن يمكنه من حكم دوقيته بنفسه إلا أن الامبراطور كان يطمع فى الاحتفاظ بها ولكنه لم يرد أن يصارحه بدخيلة نفسه وقال له: «لم هذا التعجل وأنت تعلم أن الأمراء يجب أن يمرنوا على الحكم قبل مزاولته، وقد أضعت وقتك فى الصيد والقنص وقراءة الشعر والأدب، علاوة على أنك لاتزال

حديث السن . » وفهم الدوق مايطويه قول الامبراطور من معنى ، خاصة وأنه رأى بعينى رأسه أبناء خاله الذين كانوا يصغرونه سنا ، يحكمون مقاطعات غنية واسعة ، فصمم على أن يؤجل الأمر قليلا ثم يجبه خاله بما عقد عليه العزم .

مرت بضعة أيام على هذا الحديث ثم خرج الامبراطور وبصحبته ابن أخته إلى الريف فى نزهة فقنص جان الفرصة وقال : «مولاى ، ليس أمراء أسرتكم العظيمة فى حاجة إلى بلوغ سن العشرين لتولى مهام الحكم ، وآية ذلك أبناء جلالتكم ، وهم لا يمتازون عنى بشىء ، فلم تمنعنى من التاج الذى أستحقه ؟» . فرد عليه الأمبراطور مستخفا « أتريد تاجاً ؟ ولم لم تنبئنى بذلك من قبل ؟ . » ثم مال على شجرة واقتطع غصنا ثم لواه ووضعه على رأس جان وقال ساخراً : « هاك التاج الذى تريد » فامتعض جان وألقى بالغصن إلى الأرض وقال : « ألم يبق من تسخر منه سواى ؟ لقد كنت البادىء ، وستصلى نار حرب شعواء لم تر مثلها ! » ثم همز جواده ، وابتعد عن الامبراطور الذى فحص الأرض برجليه من الضحك ، استصغارا لتهديد جان

* * *

انتهت متاعب الأمبراطور ألبرت ، التى أرغمته على أن يؤخر ساعة الانتقام من السويسريين ، فأخذ يعد لهم جيشا عرمرما ليقضى عليهم قضاء مبرما . ولما تم له ما أراد سار على رأس ذلك الجيش ليقضى حاجته ، وكان الزمن ربيعا ، وقد لبست الطبيعة أبهى حللها فبدت عروسا مجلوة ، وكان الامبراطور وهو يسير على رأس جيشه يتيه عجبا ، إذ كان يعتقد أن كل ما يرى هو من فيض حكمه السعيد .

كان الامبراطور يستبطىء سير الجيش ، فاستحث جواده واصطحب شريفا وسبق الجيش بمسافة كبيرة ، وإذ هما يعبران جسراً ، اعترض الدوق جان وصديقان له سير الامبراطور وصاح به جان ورمحه مسلولا فى يده : « سأغمد هذا الرمح فى صدرك أيها الامبراطور الشقى . » وقبل أن يجرى الأمبراطور جوابا أو أن يجرد رمحه ذودا عن نفسه ، كان جان قد اشفع القول بالعمل وضرب خاله ضربة مميتة وفر مع زميليه هاربا . أما رفيق الامبراطور فقد فر مرتعداً خائفا . خر الامبراطور صريعا على الجسر ، وساقت الأقدار عجوزا فى خرق بالية ، فاقتربت منه وحاولت أن تضمد جراحه بخرق من ثوبها البالى

وكذلك شاءت الأقدار أن تفيض روح الامبراطور ، صاحب الضياع والمدن والقرى والأقاليم والقصور والرياش الفاخرة والجواهر والجهاد المطهمة ، كما تفيض روح الأشقياء والفقراء فى العراء وبين ذراعى أمرأة ، قدتها الشيخوخة ، وأقعدها الفقر ، فتدثرت بدثار أكله البلاء ، فيالسخرية القدر ! ويالشقاء الذين يتجاهلون حقيقة الخليقة ، ويظنون أنهم قادرون متعامين عن الحقيقة الراسخة ، التى تومىء إلى كل ذى لب ، بأن الله فوق الجميع ، وأن مراقبته واجبة . وأن يد الله فوق أيديهم وأن الحياة وإن طالت فهى مطويه بيد الحق المكروه ، أى الموت الذى يلاحقهم حتى يدركهم ، وعندها يستيقنون أنهم لم يكونوا شيئا مذكوراً وأنهم فرطوا فى اتخاذ الحياة طريقا للنجاة والخلاص ، فساء أولئك مصيراً

ارتكب جان فعلته النكراء ، بدافع من الأنانية والطمع والحسد وهو وإن يكن صاحب حق مهضوم ، إلا أن هضم حقه لايبرر ارتكابه الجريمة وإراقة الدم ، مهما يكن الخصم عاتيا ظالما ، ومع ذلك فمن قتل ؟ قتل خاله وولى نعمته ، ومنشئه منذ نعومة أظفاره ، والقيم عليه طفلا وصبيا وحدثا ، وذلك مما

يزيد فى شناعة جرمه ولعله كان يرجو أن يقدم بفعلته هذه قربانا، يستميل به السويسريين، الذين نقموا من النمسويين سلب حرياتهم، ولكن خاب فأله فإنه لم يقدر صفات البطولة والرجولة والشهامة، التى انطوت عليها نفوس السويسريين ، فإنهم عندما دبروا الخلاص من خصومهم ، لم يغفلوا الاتفاق على الا يريقوا دما وألا يغمطوا أحداً حقاً وأن يتعاونوا على البر والتقوى ، وهل هناك بر أفضل وأكبر قيمة من حرية مقررة لهم بالقانون؟ أليس ذلك كبير الدلالة على أنهم لا يشجعون على إجرام، ولا يؤوون سفاكا ، ولا يؤزرون أثيما؟

* * *

تزك جان خاله صريعا ، وجاب المدن السويسرية ليأوى إلى أهلها ويحتمى بهم من آثار فعلته ، ويستعين بهم على الوصول إلى دوقيته ولكنهم ثلقوا دونه الأبواب ، ورفضوا أن يؤوه أو أن يتعاملوا معه ، فغدا طريدا شريدا . عند ذلك خطر له أن يتنكر ، وأن يستثير رحمة الزعماء ، فلبس مسوح الرهبان وطرق باب تل فى برجلن ، وكان السفر قد نال منه ، والتعب قد هده ، فلم يتمالك ساعة أن فتحت له هدوج الباب ، أن قال لها

« أهذا بيت تل ، رامى السهام ؟ » فلم تكد ترد على سؤاله حتى كان جان قد سقط خائر القوى ، مستويا على مقعد قريب من الباب . داخلت السيدة الريبة وسألته مستنكرة حاله ، « من تكون يا سيدى ؟ » فقال : « أنا أشقى البرايا ! » وأقسم بحياة ابنيها اللذين وقفا إلى جانبها وهمَّ بلمس الطفلين ولكنها صرخت « لا تلمس أحدا منهما فأنا لا أخالك إلا كاذبا ولا أظنك إلا مجرما تتستر بزى الرهبان ! »

وعندها سمع وقع أقدام تقترب ، وكانت خطوات وليم تل ؛ وما أن ولج الباب حتى قال جان (ولم تكن شخصيته قد عرفت بعد) : « « أأنت وليم تل ؟ أأنت الذى أصبت الطاغية جسلر بسهمك ؟ لئن كنت فعلت ذلك فقد قضيت على طاغية ، وأنا بدورى قد قتلت ظالما أبى أن ينصفنى ، وهو عدوى وعدوكم ، الامبراطور ألبرت ، وبذلك أكون قد أنقذت سويسرا من شروره . »

ارتدت الزوجة وأولادها إلى خدرها ، وبدا الاضطراب على تل وقال : وأسفاه ! إذن أنت الدوق جان النمسوى ، الذى قتل خاله الامبراطور ؟ »

جان : نعم ، وما الغرابة فى ذلك ؟ ألم يعتزم حرمانى من ميراثى ؟ .

تل (مغيظا) : « أيها الغادر القاتل ، والسفاك الأثيم ، كيف جسرت على دخول بيت رجل شريف مثلى » ؟ .

جان : « ولم تصفنى بالغدر ؟ ألم يكن ذلك منى انتقاما كما فعلت مع جسلر » ؟ .

تل : « ليس بين الأمرين أى شبه فجريمتك مبعثها الطمع والجشع ، وفعلتى أملتها عواطف الأبوة السامية . أغرب عنى أيها السفاك ، لقد غدرت بابن رباك ، ولم ترع نحوه حقوق الوفاء ، فدنست يديك بدم الرحم » .

عندئذ جثا جان باكيا وارتمى على قدمى تل يناشده الرحمة ، ويسأله النصيحة ، فتحركت عواطف الانسانية فى ذلك الصدر الكبير وأخذ يربّت على كتفى جان وقال : « إقامتك فى هذه البلاد محظورة ، وليس فى طوق أحد معاونتك أو حمايتك ، والرأى عندى أن ترحل إلى إيطاليا ، حيث تحاول لقاء البابا ، ومنه ، إن استطعت ، تحصل على الغفران ، فإن غفر لك فانى أعدك بأن أفسح لك مجال العمل ، فتكرس حياتك للجهاد معنا

عسى أن تكفر عن خطيئتك ، وإن أبى عليك الغفران ، فإن عليك اللعنة إلى يوم الدين ؟ » .

قبل جان يد وليم تل وشكر له هذه العاطفة ، وودعه متوجها إلى إيطاليا ولكنه لم يبلغها ، فقد قضى نحبه ، قبل الوصول إليها ، والظفر من البابا بالغفران .

الباب الثالث

القافلة تسير

مات ألبرت ومات معـــه مشروع الغزو الذى تهدد السويسريين ، ولكن إلى أمد اذ اعتلى عرش الامبراطورية هنرى السابع أمير لكسمبرج . ولم يكن هنرى السابع ينتمى إلى الهابسبرج ، ولم يكن يضمر لهم خيرا فثبت جمع أهل الأقاليم الثلاثة على موقفهم الاستقلالى وكانت باكورة أعماله تأمين العصبة السويسرية ، ومنحها التأكيدات الوفيرة ، بتبعيتها المباشرة للامبراطور وحده ، واعفائها التام من كل تشريع أجنبي ، فجزته العصبة على هذا الصنيع ، بأن أمدته بثلاثمائة أشداء ليؤزروه فى حربه بإيطاليا وليعيد سلطة الامبراطورية فيها. وهذه هى أول مرة يعمل فيها الجنود السويسريون خارج بلادهم. ولما مات هنرى عام ١٣١٣ ، خلفه لويس البافارى ، فقام كفاح بينه وبين فردريك النمسوى (من آل الهابسبرج) فأزرت العصبة السويسرية بطبيعة الحال لويس ، لأنه امبراطور أولا ، ولأنه عدو للهابسبرج ثانيا ، وبذلك توفرت لدى ليبولد (أخى فردريك) العزيمة على التنكيل بأولئك الفلاحين العصاة المردة ، كما وصفهم .

الفصل الأول

موقعة مورجاتن (Morgarten)

أو ساعة الفصل

جمع الدوق ليبولد النمسوى جيشا جرارا ، وزوده بالكثير من العربات والأسلحة وغير ذلك ، مما يلزم الجيش ، فى تكتم شديد حتى لا يتنبه السويسريون إلى ما يراد بهم من شر ، واعتزم أن يفجأهم بالغزو ، قبل أن تجتمع كلمتهم وأن يكتسح المقاطعات إكتساحا ، الواحدة تلو الأخرى فى حرب خاطفة ، لا تتيح لها المقاومة أو التعاون ، وبيت أن يبدأ بمقاطعة شويتز .

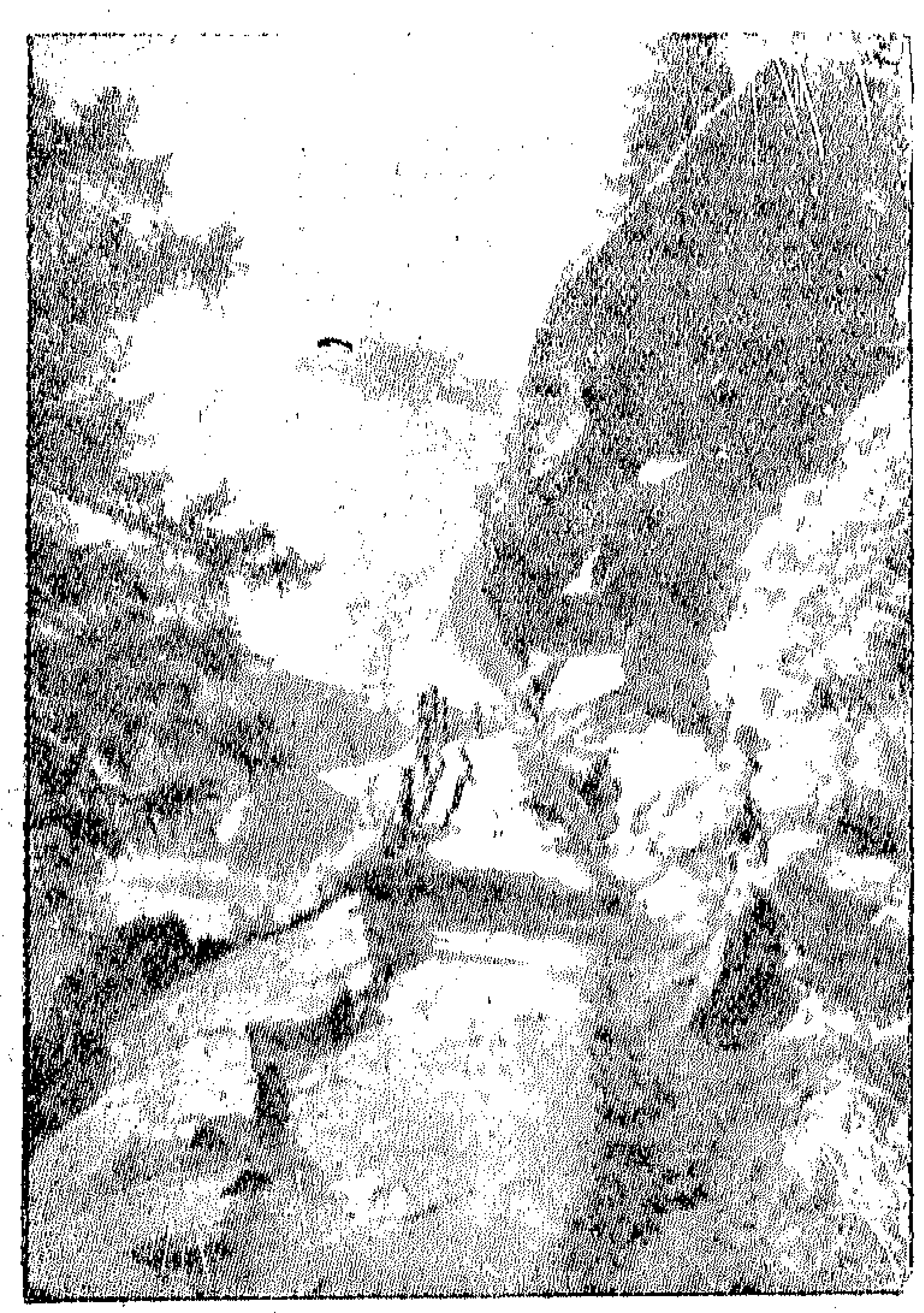
ولقد خدم الحظ آل سويسرا ، إذ كان من بين حاشية الدوق فارس يجرى فى عروقه الدم السويسرى ، فلما تنبه إلى ما يراد بقومه ، عزم على أن يخلص بلاده من عار الهزيمة ، ويحفظ لها نعمة الحرية فلحظ المشروع متظاهرا بعدم الاكتراث ، ولكنه فى الواقع كان يتخذ ذلك المظهر ستارا يخفى وراءه مأربه ، فأبلغ أبناء شويتز ما كان يبيته لهم الدوق ، وما كان يجريه من الاستعدادات . ولم يكذبه أبناء شويتز ... وجمعوا

كلهم تحت لواء فرنر ستوفاشر، وأخذوا يتأهبون للقاء الدوق.

طلب ستوفاشر العون من حليفتى مقاطعته، فجاءه المدد يترى. واستعدت كافة المدن السويسرية سرا، حتى لا يأخذها الدوق على غرة وبلغ عدد المتأهبين للنزال فى المقاطعات الثلاثة عددا لا يعدو الخمسة آلاف وكان سلاحهم الفؤوس والسهام والعصى الثقيلة، التى ركب فى أطرافها قطع من الحديد المدبب، وحمل اللواء فى جمعهم أرنولد ملشتال ووالترفرست ووليم تل، وقر قرار الثلاثة على أن يكون الأخير القائد الأعلى.

ولما أتم ليبولد استعداده، كان قد جمع جيشا، بلغت عدته أربعة وعشرين ألف نمسوى، وأضفى عليه ثراء النمسويين كافة ما كان يحتاج إليه مثل هذا الجيش العرمرم من أحدث الأسلحة وأقطعها، وأعطى الأمر للجيش بالمسير خلسة فتقدم، ولكن السويسريين، الذين ترقبوا الواقعة، كانوا قد بثوا عيونهم حول مقاطعاتهم. وفى مساء يوم عند ما كان الزعماء حول نار فى أحد الأودية، وافاهم أحد الرقباء بسهم سقط على مقربة منهم وقد ربطت فيه قطعة من جلد كتب عليها «لا تنسوا امورجارتن!» فقال ستوفاشر: «إن هذا هو

خط صديقنا البارون هننبرج الذى أنذرنا من قبل بما اعتزمه النمسويون ، وها هو يخبرنا أن العدو سالك إلينا طريق مورجارتن » .



أحد الطرق الجبلية الضيقة على جوانب الجبال فى سويسرا

أختار النمسويون ذلك الطريق مبالغة منهم فى التستر على حركاتهم وكان طريقا ضيقا ، ينفتح بين حائط صخر عال شديد الأنحدار وبين بحيرة لوسرن .

لم يكد وليم تل يسمع آخر لفظ من ألفاظ ستوفاشر ، حتى هلل وكبر وأمر فى الحال بأن يعسكر أكثر الجند فى أعلى ذلك الحائط الصخرى ليتملكوا زمام الموقف .

وفى نفس الليلة تقدم إلى الزعماء خمسون فلاحا سويسريا . مدججين بالسلاح . يعرضون تطوعهم لخدمة القضية السويسرية . فقال رائدهم :

« نحن خمسون سويسريا من طريدى العدالة . حكم علينا بالنفى من هذه البلاد من أجل أخطاء جسيمة ارتكبناها . فأردنا أن نكفر عن أخطائنا الماضية بالذود عن حياض بلادنا العزيزة . بعد ما رأينا بأعيننا جموع النمسويين تحشد لغزو وطننا هذا وأذلاله . وهكذا دفعتنا غيرتنا إلى الإتيان إليكم نسألكم أن تتفضلوا علينا بمشاطرتكم هذا الواجب المقدس » . فنظر الزعماء الثلاثة بعضهم إلى بعض ، وتشاوروا ثم أجمعوا على رفض هذه المساعدة ، بعد أن استمعوا لأرنولد ملتال يقول : « هل يمكن الاعتماد على من هو طريد القانون فى الدفاع عن الوطن ، وهل من العسير علينا أن نستغنى عن خدمة خمسين رجلا قد يكون قبولهم تتمة لمكيدة ؟ » .

سمع المتطوعون كلمات أرنولد والرفض ، الذى ترتب عليها فوقع عليهم الأمر وقع الصاعقة ، وأقسموا أن يجاهدوا ، حتى آخر رمق فيهم ، وأنهم ، وقد رفضت مساعدتهم ، منصرفون إلى القتال وحدهم كوحدة مستقلة .

وبرا بهذا القسم ذهبوا إلى رابية بعيدة انتقوها وعسكروا عليها فى انتظار العدو المشترك . واستعدادا للنزال ، سهروا الليل يدحرجون الحجارة الكبيرة إلى حافة الهاوية المشرفة على الطريق ويزيلون العوائق الصناعية التى أقيمت فى طريق هيار ثلجى ، لحولته ناحية أخرى من الهاوية .

وعند انبثاق الفجر سمع السويسريون ضجة وجلبة . كانت ضجة النمسويين القادمين ، وقد انسابت جموعهم فى الطريق الضيق الملتوى ، وفى طليعتهم الفرسان ، وقد رفعوا الأعلام ، وشرعوا السيوف ، وهزوا الحراب الصقال ، فانعكس منها ضوء كالبرق يذهب بالأبصار ، وصار خلف الفرسان المشاة ثم جمع من الجنود المرتزقة ، جىء بهم لتكثير العدد ، وقد صبغوا وجوههم وأيديهم وأرجلهم بالسواد حتى ينذعر لمرآهم العدو .

سمع السويسريون هذه الجلبة ، ولكنهم ربضوا فى مكانهم ، حتى اقترب النمسويون ، وصاروا على عشرات الأمتار منهم . وعندها دوت فى الجو صرخات عاليات مرعبة ، كان مصدرها أولئك الخمسين . فإنهم قد قذفوا بما دحرجوه من حجارة ضخمة من أعلى الهاوية على رؤوس النمسويين فكان الحجر يهوى فيطيح برؤوس العشرات من الفرسان . فيسقطوا جثثا هامدة تسد الطريق على من كان وراءهم . ثم أطلقوا الهيار فنزل كأنه الجلمود انساب يكتسح ما أمامه فلا يبقى ولا يذر . هنالك هب السويسريون من مخابئهم يطرون بالسهام والنبال من أسعده الحظ من النمسويين بالنجاة من الحجارة المتدفقة والهيار المكتسح .

وكذلك انحصر النمسويون بين العذاب المنصب عليهم من أعلى الهاوية والموت المحقق من سهام السويسريين ونبالهم ، فلم يكن لهم معدى عن أن يقفزوا إلى البحيرة ، التى ابتلعتهم ، لما اثقلوا به أنفسهم من عدة وعتاد ، وما ارتدوه من خوذات ودروع وكذلك اختلط الحابل بالنابل ، وعم الذعر ذلك الجيش العرمرم ، ثم هجم السويسريون عليهم هجمة فيها البطولة

والاستبسال والاستماتة ، فكانوا على عدوهم شرا مما لقى ، وجندلوا منه الآلاف تلو الآلاف . وكان من بين الصرعى برنجيه؟ وابن جسلر ، ونجا من نجا ، وهم قلة ، مذعورين خائفين وكان الدوق نفسه ممن أنجاهم الفرار .

* * *

لم يدرك السويسريون مبلغ ذلك النصر المؤزر إلا بعد أن خلا الميدان من النمسويين ، الذين فروا وتركوه مخضبا بدمائهم ، ومغطى بقتلاهم وجرحاهم ، ولما أحصى القتلى ، كان السويسريون قد فقدوا أربعة عشر رجلا فى مقابل الآلاف من النمسويين . عندئذ خر السويسريون سجدا ، شكرا لله على هذا النصر المبين .

وكذلك انتهت موقعة مورجارتن ، وأرغم الدوق ليبولد على إبرام معاهدة مورجارتن سنة ١٣١٨ مع المقاطعات الثلاثة ، واعترف فيها بالتنازل عن كل حقوق الهابسبرج الادارية فى أقاليم الغابات الثلاثة .

ولقد كشف هذا القتال العتيد ، الذى قضى فيه قضاء مبرم على جيش الهابسبرج ، عن شدة مراس السويسريين

وصلابتهم وأنهم لا يقهرون أمام العدد والعدة . فعدهم أمراء أوروبا منذ ذلك الوقت أفضل الجنود المشاة وظلت هذه حالهم ردحا طويلا من الزمان .

وحيا السويسريون هذا النصر ببعث رسمى لعصبتهم التاريخية من جديد فى قرية برونين Brunnen واعترف لويس البافارى بقرار هنرى السابع تقديرا لشجاعة السويسريين ، ورغبة منه فى الانتفاع بهذا النصر ، وبهذا صارت العصبة حقيقة واقعة معترفا بها من النمسويين والامبراطور ، وتمثل هيئة فدلية موفقة ، تطلع جيرانها إليها لمساعدتهم فى الملمات .

الفصل الثاني

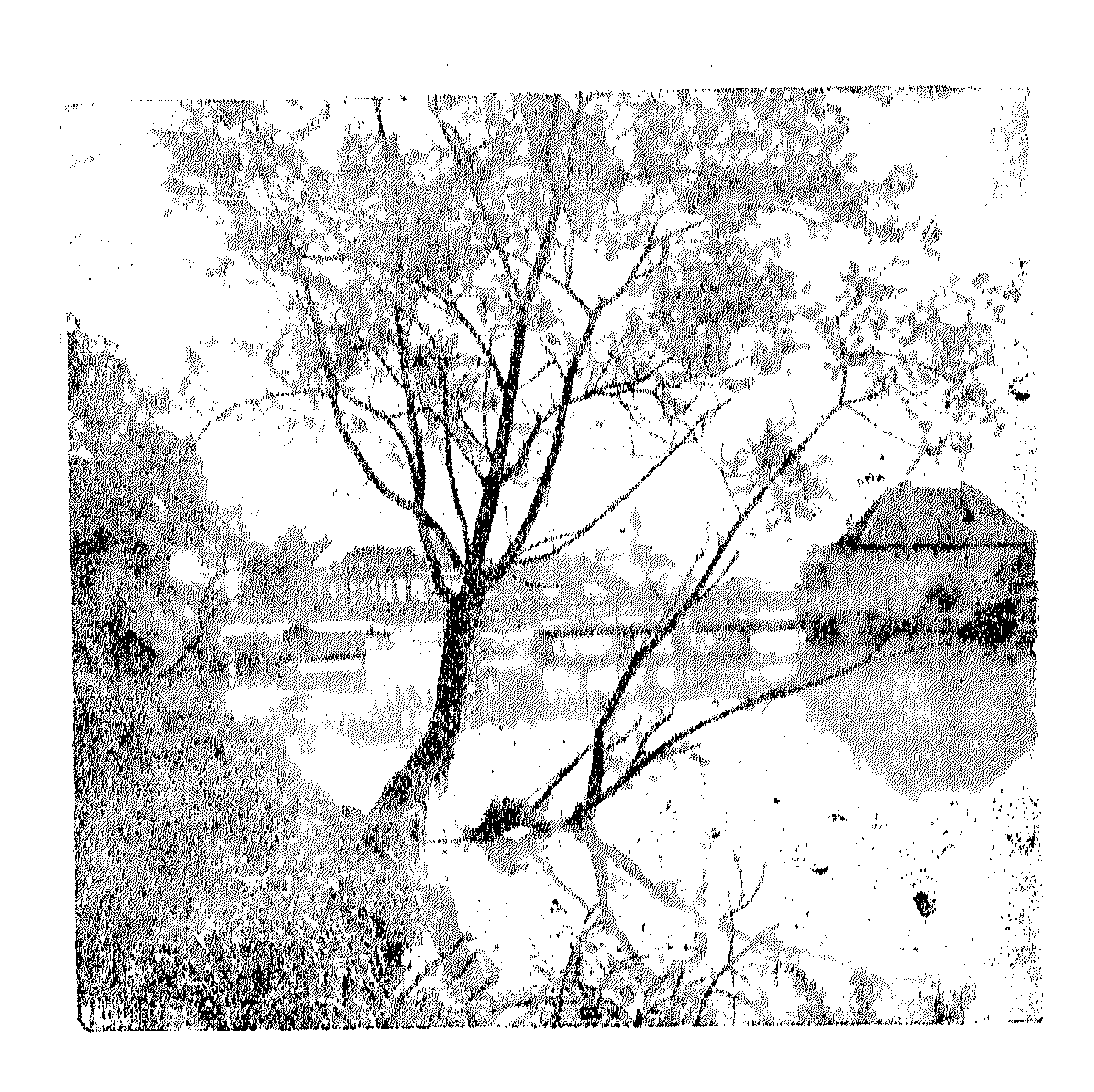
مروءة أبناء سولير (Soleure)

أصر الهابسبرج على انتهاز كافة الفرص للنيل من حرية السويسريين بل لم يكونوا يكتفون بالفرص ، لأنهم درجوا على اصطناعها بأعمال الاستفزاز ليقضوا مآربهم من أولئك الرعاة الفلاحين الذين تمادوا فى تحديهم . ولقد أفلحوا فى إثارة أبناء سولير عليهم ، فطردوا النمسويين من مدينتهم فرد على ذلك دوق النمسا الهابسبرجى فى ذلك الوقت بمحاصرة مدينتهم ، وهو يمنى النفس بسقوطها غنيمة باردة فى يده خاصة وأن ابن قائدها كان قد وقع أسيرا فى يد النمسويين .

أراد الدوق ليوبولد النمسوى أن يفيد على حساب هذا الأسير فبعث إلى أبيه يهدده بذبح فلذة كبده إذا لم يذعن لأمره ، ولكن ليوبولد أخطأ فى الحكم على أعدائه السويسريين ، لأن ذلك الذى عده موهنا للقائد ، ومغريا له على التسليم ، لم يأت بنتيجة ، فقد أعار القائد تهديده أذنا صماء ، ولم يتطرق إلى نفسه الهلع أو الوهن وبأزاء ذلك لم يجد ليبولد بدا من التفكير

فى وسيلة أخرى للقضاء على مقاومة المدينة ، فبنى جسرا على نهر الآر فى شمالها ، ليحرمها من الميرة والسلاح أو المدد يأتيها من جاراتها وعسكر على هذا الجسر لفيف من جنوده وقد كان بناء الجسر بسرعة فلم يحكم بناؤه ولم تدعم أسسه فلم تتح له قوة المقاومة ، أو تحمل أثقال كبيرة ، وحدث بعد تمامه أن هطلت الأمطار مدرارا ، وخاف النمسويون تصدع هذا الجسر فتكاثروا فوقه ليمنعوا انهياره فناء بهذا العبء الثقيل ، وهوى بهم إلى النهر وتهدد الجند النمسوى بالغرق . هذا ما كان من أمر الجند النمسوى . فما يكون حال السويسريين ؟

أيغتبط ابناء سولير بما أنزلته الطبيعة بعدوهم . ويشعلوا النيران ابتهاجا بمثل هذا النصر الرخيص ؟ لا . لم يبد على ابناء سولير أى فرح لما أصاب عدوهم الذى رام استعبادهم ولكنهم على النقيض من ذلك غلبت عليهم عاطفة الانسانية فاندفعوا إلى عمل نبيل لا يتأتى إلا لمن تنامت فيهم الغرائز . نسوا أو تناسوا ، أن هؤلاء الجند النمسوى أعداؤهم وأنهم يبيتون لهم الشر ، وأنهم اجتمعوا لينكلوا بهم ، وينزلوا بهم الضر ، نسوا أو تناسوا كل ذلك وتذكروا فقط أن المشرفين على الغرق



سوايز كما تبدو اليوم

إناس مثلهم فأسرعوا إلى المـــاء ، وأنقذ كل سويسرى من استطاع من النمسويين ، وحملوهم إلى داخل المدينة ، وأطعموهم مما حاولوا حبسه عنهم وسقوهم شرابا كانوا يعملون على حرمانهم منه ، حتى إذا هدأت نفوسهم ، واطمأنت إلى النجاة ، أعادوهم إلى معسكراتهم معززين مكرمين ، دون أن يطالبوا بتعويض ما .

تصرف نبيل ، أملته عاطفة نبيلة من جانب السويسريين فاستحقوا بذلك الإشادة والإعجاب لا اللعنة والانتقام ، خاصة وأنه رحمة بعدو ، واحسان إلى مسيء ، فلا جرم أن امتلأ ليوبولد إعجابا بهم ، فزال صلفه وانمحى حقده ، وسعى فى صحبة ثلاثين فارسا إلى المدينة ، وطلب إلى قائدها أن يدخلها كصديق ولما استقر به هناك القرار ، قدم لزعيمها علما نمسويا ، نقشت عليه عبارات التقدير والإعجاب ، ثم عقد مع المدينة معاهدة مودة وصداقة وعاد أدراجه إلى النمسا . وكذلك سلمت سولير من شرور الحصار ، واستمتعت باستقلالها منذ ذلك الحادث عام ١٣١٨ .

ولمـا كان أعضاء الاتحاد السويسرى من جيرانها قد سعوا إلى نصرتها ، فقد أصبحت سولير بعد خلاصها من الحصار معدودة من أعضائه .

الفصل الثالث

الإحسان جزاء الإحسان

في وسط هذا السرور الشامل ، والنصر العميم وتدعيم أسس الحرية لم ينس السويسريون يدا مدت إليهم ، فقبضوا أيديهم عنها مخافة أن يلوثوا بطولتهم بما يشوه جمالها من إجرام أو نسب إلى الإجرام ؛ ولكنهم عادوا فتدبروا الأمر ومرت بهم الحوادث ، فإذا هم يجدون تلك اليد مخلصة للوطن ، آبية لا ترضى للوطن ذلة، مستعدة للتضحية فى سبيل رفعته . هذه هى يد الخمسين سويسريا . ذكروا لهم موقفهم المشرف فارتفعت قيمتهم فى نظرهم وعدهم من الأبطال ، وشرطوا لهم فيما شرطوا بالمعاهدة ، أن يرد إليهم اعتبارهم وأن يبوأوا الأرض السويسرية فيقيمون منها حيث يشاءون وكذلك عفى الوطن عما سلف من خطاياهم ، لما أظهروه من إخلاص له وما أصابوه من توفيق فى خدمته ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ .

وجزى الوطن السويسرى أبطال حريته كل بما استحق، فوليم تل ، مثلا الذى عده الجميع مؤسس اتحادهم ومنقذ حريتهم

قد أقيم له تمثال بمدينة ألتدوروف ، كما أنشئت بإسمه الـكنائس التذكارية ، فيما بين Berglen برجلن والبقعة التى قفز إليها من قارب جسلر ، وعمرت قلوب السويسريين عامة بحبه والتغنى بأعماله طوال حياته حتى مات عام ١٣٥٤ ، ولا تزال ذكراه حية إلى الآن ، وأما مكان ملحمة الاستقلال فى مورجارتن ، فقد قامت عليه كنيسة نقشت على حوائطها رسوم ، تبين أدوار المعركة ، وأما يومها — الخامس عشر من نوفمبر — فقد أصبح عيدا وطنيا يحج فيه السويسريون إلى كنيسة موزجارتن ، حيث يحتفلون بذكرى ذلك النصر الخالد ، وتقام صلوات الشكر على ما قد أفاء الله به عليهم من نصر ، وما أسبغه على المقاطعات الثلاثة من نعمة الحرية ، ولا يزال ذلك دأبهم حتى يومنا هذا .

الباب الرابع

إتساع رقعة الاتحاد السويسرى

كانت العصبة قديما قد تعهدت أن يتعاون أطرافها على الذود عن حرياتهم وأن تتدخل لحسم النزاع ، الذى قد يقوم بين المتخاصمين من أبناء سويسرا، فإذا استحال فض النزاع ، لتمسك إحدى ناحيتيه بالبغى فلا يبقى للعصبة طريق إلا مقاتلة الباغى ، فلما توطدت أقدام العصبة وأصبحت تتمتع بحريتها ، ومعترفا بها من جانب الامبراطور بمقتضى معاهدة مورجارتن، تطلع إليها جيرانها ، وتمنوا لو أنهم كانوا من بين أعضائها . وهنا تأتينا سلسلة من الحوادث تتوسع بها العصبة تدريجيا ، حتى تبتلع فى النهاية كل المقاطعات (Cantons) السويسرية الحالية وأول هذه الحوادث هى أقصوصة لوسرن

الفصل الأول

لوسرن تنضم إلى العصبة

كان أهل لوسرن يحسدون أقاليم العصبة الثلاثة على ما قد نالته من حرية ، وما نعمت به من استقلال وما أصابها من خير بعد تخلصها من النمسويين ، فباتوا والغيرة تأكل قلوبهم ، وتاقوا إلى مشاطرة جيرانهم ما هم فيه من رخاء ويسر. والغريب فى الأمر أن لوسرن قامت ونمت على حساب دير مرباخ وفى حمايته ، وكان نمو المدينة وازدهارها مضعفا لحقوق الدير من ناحية ملكيته لها ، وآل الأمر إلى انهيار حقوق الدير. ولكن تشبث الرهبان بحقوقهم جعلهم يتمسكون بتعيين القاضى الأعلى ، ثم اشترى هذا الحق منهم رودلف الهابسبرجى ، رغبة منه فى استكمال سيادة الهابسبرج على سوابيا ومنذ ذلك الوقت وقعت لوسرن فى تبعيتها للهابسبرج وساعدتهم بالمال والرجال فى صراعهم مع لويس البافارى ، وتمادى الهابسبرج فى طلب المال ، وأرهقوا اللوسريين حتى فشت بينهم روح التذمر ، الذى انتهى بهم ، رغما منهم ، إلى طلب مساعدة جيرانهم —

أهل الأقاليم الثلاثة (العصبة) — وفى ديسمبر سنة ١٣٣٠ تحالفت لوسرن مع العصبة ، وبذلك أصبح عقد أقاليم الغابات أربعة : أورى ، شويتز ، أنترولدن ، ولوسرن .

ثورة فى لوسرن :

لم يكن فيما أنجزته لوسرن تحد ظاهر للهابسبرج ، الذين احتفظت لهم بكافه حقوقهم وامتيازاتهم الاقطاعية ولم يصحب ما أنجزته تغيير فى حكومتها الاوليجاركية (الأقلية) ، ولكن لم يكن فى الامكان تحاشى تأثر أهلها مع الزمن باستقلال حلفائهم ونظمهم الديمقراطية ، فتآمر أعيانها لفسخ العقد مع أقاليم الغابات الثلاثة الأخرى . وهنا نسمع بقصة بطل لوسرن الصغير :

القصة : انضمت لوسرن إلى الأقاليم الثلاثة ، وأصبحت مكونة من أربعة أطراف ، وكلها واقع حول بحيرة لوسرن ، ومن أجل ذلك سميت هذه البحيرة « بحيرة المقاطعات الأربعة » .

بدأ اللوسريون عهدهم الجديد بمحاولة التخلص من كل آثار استبدادية الأقلية (الأوليجاركية) ، التى عاونها النمسويون ، واعتمدت عليهم . وكم كانت دهشة النمسويين شديدة من مثل

هذا الاتحاد الغريب فى شكله ، والوضع الجديد الشاذ الذى هددهم بفقد المدينة من دائرة سلطانهم ، فعقدوا العزم على ألا يتم الأمر للوسريين ، وأعدوا العدة لاسترجاع سلطانهم كاملا وجهزوا جيشا لمقاومة شعب المدينة وتأزير حكامها بقيادة حاكم مقاطعة روزنبرج ، التى كانت المدينة فى دائرتها .

وفى عصر يوم من أيام الصيف ، نزل غلام يدعى «بيتر» إلى البحيرة ليستحم فى مكان يبعد قليلا عن المدينة وبعد أن أتم استحمامه ارتدى ملابسه واضطجع إلى جانب البحيرة فأخذته سنة من النوم ، استيقظ فى نهايتها على وقع خطوات خمسة أو ستة رجال يسيرون خلسة على الشاطىء ، فارتاب الغلام فى أمرهم وتشكك فى حركاتهم وثار فى نفسه حب الاستطلاع إلى تعرف نواياهم ، وكشف سرهم ، فإذا كانوا لصوصا بادر إلى إخطار شرطة المدينة ليقبضوا عليهم ويحولوا بين الناس وبين شرورهم ، وبينما هو يتأهب للعمل مرت على مقربة منه فرقة أخرى من الرجال ، يتقدمها رجل مدجج بالسلاح على هيئة الجند الذاهبين للقتال ، لا اللصوص الراغبين فى السطو والنهب .

أنعم بيتر النظر فى هذا القائد فعرفه ، إذ أنه كان حاكم روزنبرج وهو على ما كان يعرف الغلام ، عدو أهل لوسرن اللدود . أرهف الغلام السمع لحديثهم ومن سقط الألفاظ — إذ كانوا يتهامسون — أدرك أن ما رآى ، إنما هو طليعة لجيش نمسوى يعتزم غزو المدينة وإذلالها .

عرى الغلام شعور بالخوف شديد ، إذ تمثل له الخطر المحدق بوطنه وما كاد الحاكم يبتعد قليلا حتى انتصب الغلام لفوره قائما ، وسار مهرولا صوب المدينة ، متخذا من الأعشاب الطويلة والشجيرات المتناثرة ، والصخور البارزة ، ستارا له ، حتى إذا كان من المدينة قريبا ، وبينه وبينها مسافة صغيرة ، تكاد تكون عارية مما يحتمى فيه من نبات وصخور ، كشف فجأة أنه انقطع عن القوم الذين كان يترسم خطاهم . اختفوا ، وأصبحوا كأن لا أثر لهم ، فخيل إليه أن الأرض ابتلعتهم ، أو أنهم ساروا فى طريق تحت الأرض .

أجال الغلام النظر فى كافة الاتجاهات ، وأرهف السمع ، فلم يظفر فى الظلام الحالك بنتيجة لحملته ، ولم يسمع من الصوت غير خرير مياه البحيرة . كاد اليأس يقتله ، والقلق

يهدمه لولا أن رأى فى الظلام الدامس ، قبسا من الضوء على مقربة منه ، فانبطح على الأرض ، وزحف نحوه وما أن وصل إلى مصدره ، حتى وجد نفسه على حافة كهف أشبه ما يكون بنفق مظلم ، قدّ فى الصخر فتذكر أن هذا النفق طريق تحت المدينة ، وأنه ينتهى إلى قبو تحت قاعة اتحاد الخياطين .

عرف الغلام ذلك مما كان يسمعه من زملائه عن المكان ، وما أحاط به من خرافات تتسم بها عادة الأماكن المهجورة .

ولكن الغلام فكر : كيف اهتدى النمسويون إلى معرفة هذا الطريق الخفى ؟ لا بد وأن يكون أحد السويسريين الخونة قد اتصل بهم وأعلمهم بأمره .

فكرة دارت بخاطر الغلام ، ولكنه لم يكن ليجعل الخواطر تسلبه وقتا طويلا . فأن الظرف حرج ، والعمل السريع ملح وهكذا نسى الغلام نفسه تحت تأثير الشجاعة ، وغامر فولج الكهف . وما كاد يسير فيه خطوات معدودات حتى سمع حديثا فأنصت ووعى ، وإذا بالصوت لسويسرى يعرفه جميع أبناء لوسرن ، فهو صعلوك متسكع، عمله الاستجداء من ذوى اليسار ، أو اغتصاب ما فى أيدى الصبية والغلمان

وقد سبق لبيتر ، أن أصابه شيء من شر أذاه واعتدائه .

صدق حدس بيتر ، وعرف أن الخائن هو جان دي مالترز وسمعه وهو يعطي بعض الإرشادات لطليعة النمسويين ، التي قدمت لتمهد للفتح والغزو .

اقترب بيتر من القوم ليحسن الاستماع إلى خططهم . فهاله ما سمع . وانذعر مما شهد . فقد كانت لوسرن على وشك أن تشهد مذبحة هائلة تنصب على رأس سكانها . قبل أن يتنفس الصبح ، ومن هم أهل لوسرن؟ هم أهله وقرابته وأصدقاؤه وبنو وطنه .

حانت ساعة العمل ، وناداه الواجب أن يعمل بأقصى سرعة ، وفي أقرب فرصة وأن لا مجال للتردد ، وحسبه وهو غلام أن ينذر أباه وأهل مدينته بما بيت لهم .

استقر رأى الغلام على العمل ، ولكنه قبل أن يتحرك تعرض لما كاد قلبه يتفتت منه جزعا ، إذ شهد أحد النمسويين يقترب منه فجأة فاستدار ليهرب ، ولكن النمسوى رآه ، فجرى وراءه . وأمسك به . وجره إلى ضوء المصباح . الذى اجتمعت حوله العصابة ليتبين وجهه . وبينما هو يجر الغلام صاح البعض:

« جاسوس ! جاسوس ! » وهرع البعض الآخر إلى سيوفهم واستلوها ، استعدادا للانتقام من الجاسوس ، وتقطيعه إربا إربا . ولكنهم عند ما تبينوا أن الجاسوس لم يكن إلا غلاما صغيرا ، أغمدوا سيوفهم ، وجاء جان دى مالترز ليستطلع الأمر بنفسه ولما شاهد الغلام صرخ فى وجهه قائلا : « كيف أتيت هنا ؟» فقال الغلام : « كنت نائما على شاطىء البحيرة ، فأيقظنى وقع أقدامكم ، ولخوفى من البقاء وحيدا تبعتكم » فقال جان : « لا أصدق ذلك ، ولا بد أن يكون أحدهم أرسلك لتتجسس علينا . فمن ذا الذى أرسلك ؟ » فكان جواب بيتر : «لم يرسلنى أحد ، والذى قلته لكم هو الحق » . فأنكر عليه جان مرة أخرى ذلك الجواب ، وقال : « قل من أرسلك ! » وعندها جذب الغلام إليه من كتفيه ، وأركعه أمامه قائلا : أمامك عشر دقائق لتفكر فيها ، فإن أجبت على ما سألتك عنه ، عفونا عنك وإلا فالقتل جزاؤك» .

انتهت الدقائق العشر التى حددها جان ، ولم يتكلم بيتر ، فقد أخرسه ما تصوره من المصير الذى يتهدد أهله . فقال جان : « يجب أن يقتل ! » ولكن أحد رجال العصابة عارضه

قائلا : « لا لن يقتل ، فهو غلام صغير برىء ، وليس من العدل سفك دمه ، إذ أن ذلك فأل سيء لمشروعنا ، ويكفي أن يقسم لنا ألا يبوح لأى كائن حى بما رأى أو سمع ، وعندها نطلق سراحه » .

وقع هذا القول موقعا حسنا فى نفوس الكثرة من العصابة لأنهم كانوا آباء لأبناء مثله ، وفاز الصبي بحريته بعد القسم .

غادر الغلام الكهف ، والخطر المحدق بالمدينة ماثل أمام عينيه ، والعزم القاطع على تنبيه أهلها إلى ذلك مالك قياده ، فجرى طوقه وهو لا يشعر بكفاية سرعته . واستحث نفسه وهو لا يقدر ما قد يفجاه فى الطريق من خطر حتى إذا وصل المدينة يمم شطر منتدى القصابين ، حيث كان لفيف منهم يتسامرون ويتندرون حول المدفأة وعند باب المنتدى وقف بيتر وقفة الحائر الذى لا يدرى ما يفعل . ولكن لم يكن هناك مجال للتباطؤ والتريث خوفا من أن ينصرف الناس إلى دورهم وتنزل بهم الكارثة وهم لا يشعرون . فاندفع الغلام إلى الداخل وقد جالت بنفسه فكرة تحله من القسم . فسار

إلى المدفأة . ولما كان على بعد ثلاث خطوات منها . سمعه الحاضرون جميعا يتحدث . فانصتوا فإذا الغلام يقول : « أيتها المدفأة ! أيتها المدفأة ! أيتها المدفأة ! استمعى إلى فسألقى إليك بقول ليس بالهزل وإنما هو سر رهيب أحمله ، وقد أقسمت قسما على أن أطويه عن كل كائن حى ولكنى أحدثك ولست من الأحياء ، فاستمعى له أيتها المدفأة » .

دهش القوم لهذه المفاجأة ، خاصة وأنهم رأوا الغلام يخاطب المدفأة ، كأن المدفأة تعقل ، فظنوا به الظنون ، وأوجسوا أن يكون الفتى به مس من الجنون ولكنهم لم يتمكنوا من فعل شىء ، ذلك أن حب الاستطلاع حملهم على الاستماع إلى النهاية . وراح بيتر يقص على المدفأة ما رآى وسمع منذ أن خرج ليستحم حتى دخل المنتدى ، هنالك تبددت شكوك القوم ، وتيقنوا أنه أنما أتاهم بالخبر اليقين ، فهبوا مسرعين ، وراحوا إلى دورهم يتسلحون ، وإلى سيوفهم وأدوات حربهم يحملون ، واستعدوا للأمر حتى لا يفجأوا . ولم ينتصف الليل حتى كانوا قد قبضوا على المتآمرين ، وأرسلوا فى طلب النجدة من أنترولدن ، وطردوا النبلاء ، الذين ما زالوا

فى الحكم ، وكونوا مجلسا قوامه ثلثمائة مواطن لإدارة شئون المدينة وما والاها . وبذلك أصبحت لوسرن على أتم أهبة لملاقاة الخصوم .

توقع النمسويون أن يجدوا المدينة ساكنة هادئة . غشيها النعاس وعراها السبات ، ولكن طاش سهمهم ، وخاب فألهم فقد لقيهم صناديد المدينة لقاء أطار لبهم ، وقلب خططهم رأسا على عقب ، فحاق بهم مكرهم السىء وحلت بهم هزيمة منكرة .

وكذلك تخلصت لوسرن من ذل الهزيمة ونير الاستبداد ولم يجرؤ نمسوى بعد ذلك أن يطأ أرضها . ليكون فيها سيدا مطاعا . واستقلت المدينة إلى الأبد وذلك بفضل بيتر الغلام ، بل البطل الصغير ، وما تجشمه من الأخطار وما تلمسه من حيلة تنجيه من الحنث بقسمه ، لينقل إلى قومه البررة الأوفياء نبأ الهجوم المفاجىء عليهم . ويا لهم من غر صناديد تعتز بمثلهم الأوطان ، إذ لم يضيعوا وقتا ، ولم يقعدهم جبن عن أن يدرعوا ويهبوا للذود عن الحياض . فخلدوا فى صحائف المجد ذكرهم ، وضربوا بعملهم هذا مثلا عاليا لمن يأتى بعدهم من الأجيال .

وقد أدى هذا النصر المبين إلى تفكير عامة أبناء لوسرن فى سلامتهم المستقبلة ، فعقدوا فى عام ١٣٣٢ حلفا دائما مع العصبة مكنهم من أن يكونوا الأقليم الرابع فيها بنفس الامتيازات التى تتمتع بها الآخرون ، وزيد على ذلك ، أنه فى حالة وقوع خلاف بين الأقاليم الثلاثة الرئيسية (The three Waldstätte) تكون لوسرن إلى جانب الأغلبية .

الفصل الثانى

العصبة تزداد عددا

برن (Bern)

وقع الهابسبرج ، بعد الذى مر بنا من مآسيهم ، فى أخطاء جديدة أثارت عليهم مدينة برن وما حولها وآل بهم الأمر إلى محاربتها حربا ظاهرة ، بقصد إذلالها. وأشهر الحوادث فى ذلك حصارهم هم وأعوانهم من الأمراء التابعين لهم فى عام ١٣٣٩ — ١٣٤٠ لمدينة لوبان ، احدى حلفاء برن ، وما بدا منهم من القسوة فى ذلك ، مما أقام أهل برن وأقعدهم ، فاستعدوا بكل ما أوتوا من قوة والتقوا بأعدائهم فى موقعة حامية الوطيس ، قدر الله لهم فيها النصر ، وانقشعت عنهم وعن أهل لوبان غمة الحصار والحرب .

تلى ذلك اعتداءات من النمسويين وأتباعهم على برن كان النصر فيها جميعا حليف أهل برن حتى لقد شاعت فى ذلك العصر فكرة مؤداها « أن الله سبحانه وتعالى كان منحازا إلى جانب أهل برن ، وأنه يمدهم بجند من عنده » .

وقـــد كانت تلك السلسلة من الاعتداءات النمسوية والانتصارات من جانب أهل برن مدعاة لأن يتعاون أهلها مع أعداء النمسويين — أقاليم الغابات السالفة الذكر ، كما كانت الدعامة الأولى التى قربت بين الشرق والغرب فيما يقال له الآن سويسرا فتعاونا ضد العدو المشترك ، وأدت زمالة الحرب إلى تجديد حلف قديم بين برن وأقاليم الغابات ، ثم نما هذا الحلف حتى انتهى إلى دخول برن فى العصبة ســـنة ١٣٥٣ بدعوة من الاتحاد .

* * *

انضمام زيورخ

ولما كان آل الهابسبرج لا يتعلمون من التجارب بل يزدادون على مر الأيام جورا وتماديا فى غرورهم ، فقد رحبوا بكل فرصة تزيد فى نفوذهم ، ومن ذلك ما كان من أمرهم مع زيورخ ، التى كانت فى القرن الرابع عشر مدينة إمبراطورية حرة ، لا تدين بالطاعة إلا للامبراطور نفسه ، والتى كانت حكومتها أوليجاركية بحتة . فانتهز الهابسبرج ذلك ليمكنوا لأنفسهم فى المدينة ولكن الأمر انقلب عليهم ، عندما أحس

أعضاء نقابات المدينة بما يراد بهم على يد حكامهم ، وكذلك جرت الحوادث على زيورخ ، كما جرت على كثير من المدن الأخرى فهزتها الثورة ، وقام أرباب المهن ، المنتظمين فى نقابات ، ينكرون على سادتهم الحق المطلق فى الحكم ، وتزعم هذه الحركة رودلف برون الذى تم له طرد أصحاب السيادة القدماء والتسيطر على زيورخ خمسة عشر عاما كاملة ، أحس بعدها بالخطر على نظام الحكم من جانب أعدائه القدماء وحلفائهم النمسويين ، فمال بكليته إلى الاتحاد مع أقاليم الغابات ، التى كانت أصلب خصوم الاستبدادية الهابسبرجية .

تنكب برون سبيل الحكمة فى سيادته على زيورخ ، فأثار ضغينة أهلها عليه ، وشجع ذلك أعداءه القدماء المطرودين على التآمر عليه ، بغية التخلص منه فتسللوا إلى المدينة ، واتصلوا بالنبلاء الموجودين فيها ، وسرعان ما وجدوا فيهم أعوان متحمسين من أمثال جون الهابسبرجى كونت رابرسيشويل ، وهو ابن عم أدواق النمسا ، وأحكموا التآمر ، إلا أن الحظ خانهم فقد اتصل بسمع صبى خباز سقط ألفاظ المتآمرين ، الذين كانوا يتحاشون ظهور أمرهم ، فجرى هذا الصبى بما سمع

إلى سيده الخباز ، وهذا حمل بدوره النبأ إلى برون ، فاستغاث بالناس وأثار فيهم الخوف من عودتهم إلى الاستبدادية القديمة فهبوا يدافعون عن حريتهم وبذلك تمكن برون من أن يقضى على الحركة ، ويقتل جميع المشتبه فى أمرهم ، ويسجن جون الهابسبرجى ، ويخرب مدينته رابرسشويل ، فاستشاط هابسبرج النمسا غضبا ، وأنذروا برون بالويل والثبور وعظائم الأمور حتى لم يجد مناصا من التحالف مع أقاليم الغابات فى مايو عام ١٣٥١ .

ونجد فى صيغة هذا التحالف التنظيم الأول للعصبة الاتحادية وإليك نص ذلك :

« نحن ولايات زيورخ ولوسرن وأورى وشويتز وأنترولدن نعلن دخولنا فى تحالف ثابت دائم ، ونتعهد بأن يساعد بعضنا بعضا ، بما نملك من نفس ونفيس ضد كل من يحاول بأى حال من الأحوال أن يلحق بنا الضرر فرادى أو جماعات ، سواء أكان ذلك فى شرفنا أم فى متاعنا أم فى حرياتنا ، وهذا ما سنأخذ أنفسنا به فى كل زمان ومكان : فى الآر Aar والثر ... والرين Rhine (وكلها مجار مائية) ، وفى جبل سان

جوثار ، وإذا طلب مجلس أو جماعة مساعدة فسيقسمون أن الحالة ماسة لها ، وعندئذ ترسل كل ولاية نجدتها على نفقتها الخاصة دون تسويف أو تأخير ، وفى المدلهمات التى تقتضى سفرا بعيدا أو وقتا طويلا ، تعقد الولايات مؤتمرا فى أينسيدلن Einsiedein يبحث فى الاحتياطات التى تلزم ، والطرق التى تتبع . وها نحن الولايات الاتحادية نعلن محافظتنا التامة على حقوق الامبراطورية الرومانية المقدسة وسيادتها ، ومحافظة كل منا على تحالفاته السابقة ، ولكل ولاية أن تعقد تحالفات جديدة ، بحيث لا يضر ذلك بمصلحة الاتحاد ، وكلنا متعاونون فى المحافظة على دستور زيورخ وحاكمها . وإذا نشب خلاف بين أقاليم الغابات وزيورخ فترسل المدينة اثنين من عقلائها الخيرين ، وترسل الولايات مثلهما إلى إينسيدلن . ويسوى هؤلاء الأربعة النزاع ، بعد أن يقسموا يمين الاخلاص . فإذا تساوت الأصوات فلهم أن يختاروا خامسا من أية ولاية ، وهذا هو الذى يرجح إحدى الكفتين » .

ويظهر من هذه الوثيقة الاقتراب من النظام الاتحادى ، بفضل النص على عقد المؤتمرات والتحكيم مع حرية كل ولاية

فى اختيار نظام الحكم فيها ، دون تدخل الولايات الأخرى .
وحقها أيضا فى عمل تحالفات جديدة منفصلة من غير استشارة
الولايات الأخرى .

انضمام جلارس « Glarus » سنة ١٣٥٢

هم الهابسبرج بتنفيذ وعيدهم ضد زيورخ وحاكمها بعد
أن أفلتت الفرصة من أيديهم وأصبح لزيورخ سند فى الاتحاد
وترتب على ذلك أن تقدموا لحصار المدينة طالبين إلى المدن
والقرى المجاورة لها أن تمدهم بالرجال والمعدات فلم يلق أهل
جلارس إليهم بالا وبنوا هذا الرفض على أنهم غير تابعين
للهابسبرج وإنما هم تابعون لدير للراهبات وأن يكن الهابسبرج
قد صاروا حماة الدير فإن ذلك لم يكن يلزم أهالى جلارس بأى
حق اقطاعى نحوهم إلا إذا كان الدير وحقوقه مهددين . فلم يكن
من الهابسبرج إلا أن بعثوا إليهم بعدد من الجند يحملهم على
الطاعة . فعد أهل أقاليم الغابات هـذا العمل تحرشا وإثارة
وخطرا على الحقوق المقررة . سارعوا إلى نجدة جلارس .
وارتدت جنود الهابسبرج أمامهم مهزومة وكان ذلك سببا
فى عقد معاهدة بين جلارس وأقاليم الغابات ، لا ! بل بين جلارس

وبين العصبة الثابتة الدائمة (الاتحاد) . وبمقتضاها صينت حقوق الدير والهابسبرج معا وايراداتهما . ووعد أهالى جلارس بألا يعقدوا حلفا جديدا إلا بعد موافقة الاتحاد .

انضمام زج « Zug » سنة ١٣٥٢ :

تقع مدينة زج بين مدينة زيورخ وبحيرة لوسرن ، وتحتلها حامية نمسوية وخشى الاتحاد أن يستعملها النمسويون تكئة للقفز على عضو أو أكثر من أعضاء الاتحاد ، فرأى أن يزيل هذا الخطر وانبرى لذلك أهالى شويتز ، فطلبوا إلى حامية زج وأهلها التسليم ، وأعلنوا أنهم لا ينوون تقويض سلطة الهابسبرج ، أو تغيير دستور المدينة . وقاومت الحامية على أن تصلها المعونة من النمسا ، ولما لم تفد الإمدادات المنتظرة اضطر الأهالى والحامية معا إلى التسليم والخضوع ؛ وبعدها سمح لزج رسميا بدخول العصبة .

وانتهت هذه التصادمات ، التى بدأت بمحاولة الهابسبرج تنفيذ وعيدهم ضـــد زيورخ بمعاهدة فى عام ١٣٥٢ بين الهابسبرج وأقاليم الغابات ، قضت بأن لا تمس حقوق

الهابسبرج ، ولا أن تقوم العصبة بحماية أحد من رعاياهم ، مع بقاء التحالفات والاحتياطات والعصبة الثابتة الدائمة على ما كانت عليه قبل المعاهدة ، ودخلت فى ذلك زيورخ ولوسرن بطريق غير مباشر ، ثم طلبت العصبة إلى برن أن تنضم إليها فوافقت وتم ذلك فى عام ١٣٥٣ كما سبقت الاشارة إلى ذلك.

الفصل الثالث

ستون عاما مجيدا

انتظم عقد العصبة الاتحادية ، بموافقة برن على الانضمام إليها ، ثمانية أقاليم وتكون العصبة بذلك قد نمت إلى هذه المساحة الكبيرة فى ستين عاما أو يزيد (١٢٩١ — ١٣٥٣). ولكنه من الواضح أنها لم تكن إلى ذلك الوقت أكثر من نواة للاتحاد ، إذ لم تكن هناك حكومة مركزية ، ولا مجلس أعلى للقضاء ، كما لم يكن أعضاؤها متساوين مع بعضهم البعض حسب الاتفاقات ، على حين كان البعض غير مرتبط بالبعض الآخر ، فبرن لم تكن مرتبطة بلوسرن وزيورخ مباشرة ، ولا متحالفة مطلقا مع جلارس وزج ولم تكن هناك رابطة بين زج وجلارس . وقد حالت الفروق الدستورية بين الاقاليم المختلفة وبين النظر إلى المشاكل السياسية بمعيار واحد ، إذ احتفظت برن بهيئتها التنفيذية الأرستقراطية (الأوليجاركية) واتخذت كل من زيورخ ولوسرن نظاما سياسيا معقدا ، على حين كانت أقاليم الغابات الثلاثة الأصلية مع زج وجلارس تستمتع بديمقراطيات بحتة ، يساهم فى قوتها السياسية كل ذكر رشيد .

الفصل الرابع

تربص العـــدو

كان المقدر لهذا الاتحاد المفكك العرى وغير المتماسك أن ينهار لو أن الهابسبرج تركوا الأمور تسير فى مجراها العادى ، ولكنهم شاءوا أن يتجاهلوا الحوادث المادية ، والروح القومية العالية ، التى كانت تدفع السويسريين دفعا إلى المحافظة على حقوقهم وحرياتهم المكتسبة بالحرب تارة وبالمنح تارة أخرى ، وهالهم ألا ينجحوا فى غرضهم الرئيسى منذ البداية وهو إعادة سوابيا (المكونة من الأقاليم الثمانية وغيرها) إلى دوقية متماسكة قوية تحت سلطانهم مهما كلفهم ذلك ، فتربصوا ومالوا بعد معاهدة ١٣٥٢ إلى التوسع فى أعمال الاستمالة والشراء والميراث والإغراء على الخيانة ، كما حدث فى زيورخ ، وكاد برون أن يفلح فى إغراء الاتحاد على قبول صلح يسلم بمقتضاه بكل النقط الحيوية الهامة التى كانت موضع نزاع ، لولا أن كشفت الخيانة سافرة فى آخر لحظة ، ثم أفلح الهابسبرج فى شراء مقاطعة رابرسشويل فدقوا بذلك إسفينا بين بحيرة زيورخ وأقاليم

الغابات ، ثم شيدوا قنطرة فخمة على البحيرة بدعوى مساعدة الحجاج إلى إينسيدلن ، إلا أن غرضهم الحقيق من ذلك كان التسلط على الطرق الرئيسية بين إيطاليا وألمانيا ، كما نجحوا فى الحصول من الامبراطور شارل الرابع على وظيفة « حماة الامبراطورية فى سوابيا الدنيا والعليا » فأسفر ذلك كله عن انقسام خطير وقف فيه أمراء سوابيا وفرسانها فى ناحية وباقى الطوائف وجلهم من العصبة فى ناحية أخرى ، وتكرر الصدام المحلى ، وباتت سويسرا تتوقع حربا أهلية لولا أن الهابسبرج مالوا إلى الأمراء والفرسان فى بادن (Baden) بأرجاو (Argau) ولم يكن فى استطاعة العصبة أن تساعد أهالى بادن وتوقع الهابسبرج نصرا هينا، غير أن السويسريين الذين نقضوا معاهدة ١٣٥٢ أدركوا أن النزاع نزاع للحرية أو العبودية فبذلوا كل مجهود لجمع الجنود ومنازلة الهابسبرج فلما تم لهم ذلك وقعت عند سمباخ موقعة خالدة الذكر نورد نبأها بما جرى به القصص عن بطل مزعوم هو ارنولد ونكلريد Arnold Winkelreid .

« أفسحوا الطريق للحرية »

واها للحظ إذا تعثر ، واف من الزمان إذا عبس ، وياويل

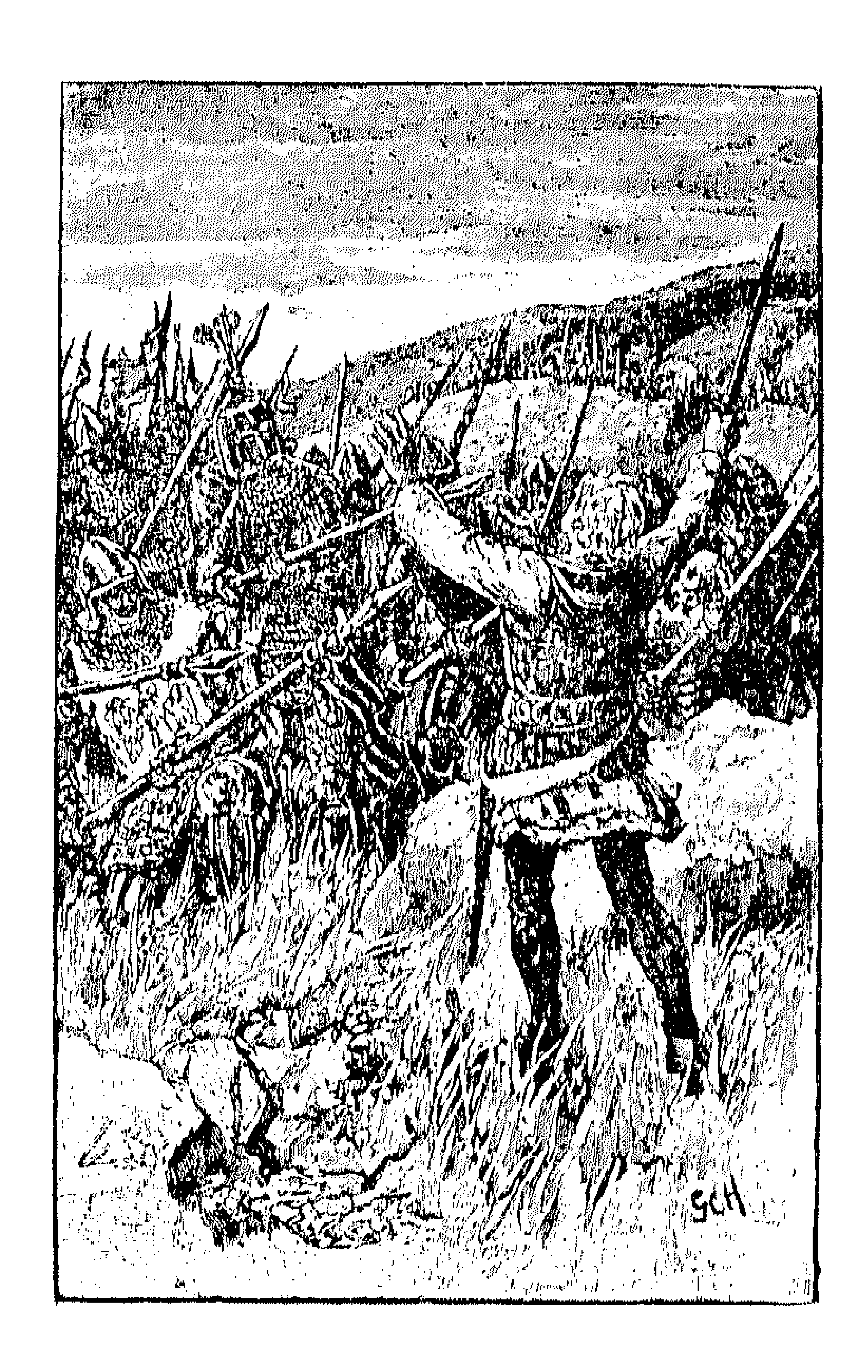
بلاد نكبتها الأيام وتحزبت عليها تقلبات الحدثان . ذلك كان شأن سويسرا ، فانها بعد جهاد امتد إلى ستين عاما ، أظهرت فيه كل أنواع البطولة وقوة الايمان بالحرية ، والطهر من أن تدنس الجهاد . بطمع أو عدوان ، لم يشأ الدهر أن يبتسم لها ويتم لها استقلالها وكانه خط فى اللوح ألا تتحرر أجزاء سويسرا إلا قطعة قطعة وألا يكون ذلك إلا إذا جرت دماء الضحايا مدراراً : ضحايا الطمع الأشعبى للهابسبرج وألا تكون المقاطعات الثمانية السابقة الذكر كل ما يكون الأمة السويسرية بل كان استقلالها واكتمال عصبتها من نواة اتحادها خطوة تتلوها خطوات إلى الأجزاء الباقية حتى تدخل كلها فى عجلة الاتحاد ، ويكون لها ما لجاراتها من حقوق والتزامات . ولكنها كانت إذا رفعت إحداها الرأس لتطالب بما لها من حقوق جمع لها الهابسبرج أدوات القمع والعدوان . ذلك مثلهم عندما انسلخت عنهم زيورخ بعد موت برون ، وتنبهها إلى ما كان يحاك لها فى الخفاء من مكايد ، للقضاء على سيادتها فعد الهابسبرج ذلك استهتاراً بهم ، وتحديا لسلطانهم ، فأعد ليوبولد دوق النمسا العدة فى ٩ يوليو سنة ١٣٨٦ ، وسار على رأس جيش ممتاز ،

يتقدمه عدد كبير من الفرسان لتأديب زيورخ على «وقاحتها»
ولم يكن فى وسع المدينة أن تخرج لهذا الجيش المعد إعداداً
دقيقاً إلا فرقة صغيرة من صفوة أبنائها .

كثرة فى العدد والعدد، ولكنها لا تؤمن بمثاليات تحفزها
على الاستماتة والتضحية ، وتلتى هذه الكثرة قلة ملحوظة ،
ناقصة العدة، ولكنها إلى جانب ذلك قد تسلحت بإيمان قوى
ووطنية جارفة وآمال طاغية فى الاستقلال ، كل ذلك جعل من
كل واحد منها خلقا يرجح العشرة شجاعة وإقداما وتضحية
بالنفس فى سبيل الوطن والحرية .

إلتقى الجمعان فى ساحة سمباخ (Sempach) إلى الشمال الغربى
من لوسرن ، وكان الفرسان من جيش ليوبولد قد ترجلوا ،
وتركوا خيولهم فى المؤخرة لوعورة المكان ، أو لعلهم أفادوا
من الدرس الذى تلقوه فى معركة مورجاتن ، فآثروا أن يقاتلوا
مترجلين وزحفوا متلاصقين كأنهم البنيان المرصوص ، وقد
شرّعوا رماحهم الطويلة وسددوها نحو السويسريين من غير
أن يتركوا لهم ثغرة فى القلب أو فى الجناحين ينفذون منها
وتواصوا أن يظلوا كذلك متساندين ، وجنبا إلى جنب إلى

آخر الملحمة . ولقد نجح هذا التدبير ، وأجهزوا فى بدء القتال على ستين سويسريا دون أن يصاب أحد منهم بأقل أذى ، وذلك بفضل رماحهم وحرابهم الطويلة ، التى لم يكن للسويسريين مثلها ، ومع ذلك فقد ظل السويسريون يحملون عليهم الحملات الشديدة ولكنهم كانوا كوعل ينطح الصخر ، ولم ينالوا منهم شيئا وحاولوا جاهدين أن يخترقوا صفوف النمسويين ولكن دون جدوى وكانوا طوال الوقت يركزون على إيجاد ثغرة ينفذون منها ، وهم مؤمنون بأنهم إن تم لهم ذلك كانوا سادة الموقف وعقد لهم النصر وفيما هم فى إقدام واندفاع ، ورماح النمسويين تتخطف أرواحهم ، واليأس يدب دبيبا إلى نفوس البعض منهم إذا برجل يهب نفسه للوطن، ويتقدم من بين الصفوف ويخاطب إخوانه بأعلى صوت : « سأفسح لكم طريقا أيها المواطنون الأعزاء وأحقق لكم ما يخالج صدوركم ، فالى اللقاء فى العالم الآخر ، وأصيكم بزوجى وأبنائى خيرا » . وما كاد يتم كلامه حتى اندفع إلى النمسويين اندفاعا كالسهم المنطلق وسدد النمسويون اليه حرابهم ، فجمع من أسنتها فى صدره عدداً يقرب من العشرة ، وقبض عليها



دون رينكاريد يتصدى للنمسويين ليفسح طريقا للحرية

بيديه قبضة حديدية ، فلم يتسن لأصحابها أن يخلصوها من يديه. هنالك انفتحت الثغرة المرجوة ونفذ منها السويسريون بسرعة البرق إلى قلب النمسويين ، واختلطوا بهم ، وعملت الشجاعة عملها ، وبلغت الشهامة حدودها فجندلوا من النمسويين ذات اليمين وذات الشمال واعملوا فيهم الحراب وهم حائرون لا يرون طريقا للخلاص لثقل دروعهم وعدم مرانهم على حرب المشاة فسقط الكثيرون منهم صرعى ، وفر الباقون لا يلوون على شيء ، وكان الدوق ليوبولد من بين الصرعى .

وكذلك كتب الله النصر في يوم سمباخ للسويسريين ، كما كتبه لهم من قبل في يوم مورجارتن ولكن النصر الأول يتميز بالتضحية الكبرى من جانب السويسريين ، والشك فيه إلى أن قيض الله لهم ذلك البطل العظيم الخالد الذكر فون ونكلريد Von Winklereid الذي قدم نفسه فدى للوطن ، وفتح الثغرة التي نفذ منها السويسريون فكان ما اشتهته نفوسهم من نصر قوي مبين ، ولم ينس السويسريون ذلك اليوم . فجعلوه يوم عيد لذكرى خلاصهم من النمسويين مرة أخرى .

الفصل الخامس

أما لهذا الليل من آخر ؟

بيت السويسريون منذ أن أشقاهم الاستبداد، أن ينفضوا عنهم غبار الذل والاستكانة وأن يعيشوا كراما فى وطنهم ، وأن يحافظوا على حرياتهم بكل ما أوتوا من قوة وقد رأينا أنهم ظلوا طوال القرن الرابع عشر يجالدون ويجاهدون وينتصرون على أعداء حريتهم آل الهابسبرج ، حتى انتصروا ذلك الانتصار الرائع فى موقعة سمباخ ، التى كفلت لهم عقدا فى العصبة يبلغ الثمانى ولايات ، فهل كان القدر قد سمح لهم بانتهاء صراعهم وجلادهم ، أم إن الطريق أمامهم كان لا يزال محفوفا بالأخطار والحرية مدثرة بالأشواك ، وعليهم أن يضحوا إذا شاءوا أن يستقر لهم الحال وتصفو لهم الأيام ؟

كل ذلك كان غيبا مستورا فى أوائل القرن الخامس عشر ثم تكشفت حقيقته ذلك القرن ، فأن الهابسبرج ، بقوتهم المستمدة من أملاكهم خارج سويسرا كانوا سويسريين أولا وآخرا ومن هذا الأصل ثباتهم على رأى واحد وتضحيتهم

فى سبيل تحقيقه فكيف يتبنى لهم وهم بهذه الصفة أن يتنازلوا راضين عن تجديد وإحياء دوقية سوابيا وتوحيدها تحت سلطانهم ، ويتقاعسوا عن ذلك أمام الجبليين الرعاة الفلاحين ؟ وكذلك قضت الأقدار أن يستمر الصراع بين القوتين غير المتكافئتين بقية القرن الرابع عشر وشطرا كبيرا من القرن الخامس عشر . وعند ما تجددت الحرب بينهما فى عام ١٣٨٩ كان النصر حليف السويسريين فى ساحة نافل « Nafels » وبذلك اتيح لهم عقد الصلح ، الذى أقل ما يوصف به هو أنه أرضى السويسريين عامة ، إذ به تنازل الهابسبرج عن كافة حقوقهم الإقطاعية المباشرة وغير المباشرة فى لوسرن وجلارس وزج وهكذا يكون السويسريون قد حققوا التخلص من التبعية لامراء الإقطاع ، وظفروا بتبعيتهم المباشرة للامبراطورية دون سوها .

خبت الأيام خبيها ، ودب الشقاق بين أعضاء العصبة ، وظلت الحال تميل نحو الاتحاد والتعاون مرة ونحو التطاحن والتشاحن مرة أخرى بفضل الأصبع النمسوى ، الذى كان لا يكل عن بذر بذور الشقاق ليستعيد سلطانه وهيبته حتى

عام ١٤٥٠ ، عند ما وضع للاتحاد دستور يقوى من أسسه ، ويربط بين أعضائه برباط قوى عادل .

ولمناهضة الدس النمسوى لجأ الاتحاديون إلى عقد أول محالفة لهم مع فرنسا عام ١٤٥٢ ، وكان لهذا الارتباط أثره الفعال فى تاريخهم ، فقد اضطروا اضطرارا إلى أن يتعرضوا لنقمة شارل الجسور ، حليف سجسمند الامبراطور ، الحليفين اللذين كانا عدوين لدودين للويس الحادى عشر وكانا يناهضانه مناهضة مرة أليمة ، وبذلك وقع الاتحاد فى سلسلة من المكائد المعقدة التى انتهت إلى ما يعرف فى تاريخه بالحرب البرجندية وتفصيل ذلك ، أن السويسريين انضموا إلى لويس الحادى عشر ، وهاجموا أملاك شارل القريبة من بلادهم ، فغاظ ذلك شارل ، وجمع جيشا جرارا لتأديب أولئك المردة ، الذين تجرأوا على نصرة خصمه ، والهجوم على أملاكه لكن شارل عند ما التقى بالسويسرين عام ١٤٧٦ باء بالخسران المبين فى موقعتى جرنسون « Grandson » ومورات « Morat » وكسب السويسريون من هذين النصرين استرجاع اللورين إلى حاكمها بعد موقعة حامية لقى فيها شارل حتفه وهى موقعة نانسى ١٤٧٧

ومن طريف ما يروى عن هذه الموقعة أن جنود شارل قد تمزقت أجسامهم فى ساحة القتال ، وانتشرت أشلاؤهم الكثيرة ، وهم من البرجنديين ، حتى غطت ساحة القتال فى مورات ، وبقيت كذلك مبعثرة ، حتى زار هذه الساحة فى عام ١٨١٦ لورد بيرون الشاعر الانجليزى المشهور وقد كان لا يزال موجودا منها الشىء الكثير ، على الرغم من أن البرجنديين كانوا يزورون هذه الساحة بين آونة وأخرى ، ليحملوا من عظام أجدادهم وأبناء جلدتهم ما يستطيعون إلى أرض الوطن ، لتوارى هناك . وعلى الرغم من أن السويسريين طوال هذه السنين ، كانوا يأخذون هذه العظام ليصنعوا منها أيادٍ للسكاكين . ولقد تأثر اللورد بيرون بما رآى لحمل من هذه العظام قدرا غير يسير ، وكتب قصيدته المشهورة The Patriot Field التى قال فيها :

Won by the unambitions heart and hand
Of a proud brothery ,and civic band

ولقد خرج السويسريون من هذه المأساة بشهرة حربية عظيمة فازدادت مكانتهم رفعة ، وتقوى فيهم الشعور الوطنى العام فى داخل الاتحاد ووجدت الصلات الوثيقة بين الاتحا

وبين بعض أجزاء سافوى ، التى ضمت إلى الاتحاد نهائيا بين سنة ١٨٠٣ ، ١٨١٥ .

وما زال الاتحاد بعد ذلك يقفز من كسب إلى كسب ، حتى أصبح عدد ولاياته الاتحادية ثلاث عشرة ولاية عام ١٥١٣ ، بإنضمام بال وجنيفا وشافهوزن وسنت جال وبيين والفاليز ، وجعل لها كلها مجلس يعرف بالديت « Diet » .

وظل مستقبل سويسرا معلقا فى كفة القدر حتى تحرر الاتحاد رسميا من سيادة الامبراطورية ومن سلطة الامبراطور التشريعية عام ١٥٢١ بمقتضى قرارات مؤتمر مونستر Munster وبوضع بند خاص عن ذلك فى معاهدتى وستفاليا عام ١٦٤٨ تقرر بمقتضاه أن تكون مدينة بال وغيرها من كانتونات هلفتيا (أى سويسرا) متمتعة بالحرية التامة ، وأنها ليست خاضعة للمحاكم الإمبراطورية فى قليل أو كثير . ولقد قصد بهذا الإعفاء الرسمى من كل الارتباطات مع الإمبراطورية ، التى لم يعد للاتحاد بها صلة ما بعد ذلك سوى صلات الصداقة ، وهكذا يكون الموضوع قد سوى نهائيا بما خلق من الاتحاد دولة أوربية مستقلة .

الباب الخامس

استخدام السويسريين

فى جيوش الممالك الأوربية

عاد الكفاح العتيد بين الهابسبرج والسويسريين من أجل الحرية وماأظهروه أبان ذلك من ضروب البطولة والتضحية على السويسريين بسمعة طبقت آفاق أوربا وسارع ملوكها إلى تقوية جيوشهم بإدخال العنصر السويسرى فيها . وبذلك فتحت شجاعة السويسريين لهم أبواب الارتزاق على مصراعيها .

وقد استخدمتهم معظم الممالك الأوروبية فى جيوشها ، فعل ذلك الفرنسيون كما فعله الأسبان والنمسويون والهولنديون وملوك سردينيا وأدواق ميلان والبابا نفسه . وقد شهد الجنود السويسريون المرتزقة معظم المواقع الهائلة فى العصور الوسطى وحتى فيما تلاها من العصور .

وقد استخدمتهم الامبراطورية البريطانية فى أواخر القرن

الثامن عشر ، وتكونت منهم فرقة بأكملها ، ولقد عمل خلفاء هؤلاء فى الجيش البريطانى إلى ما بعد موقعة واترلو وشهد بعضهم الحرب فى مصر عام ١٨٨٢ ، وشهد البعض الآخر الحروب فى اسيا ، وكانت هناك فرقة سويسرية تحارب فى كندا (١٧٥٦ — ١٧٦٣) . وقد زغبتهم السلطات البريطانية فى نهاية حرب السنوات السبع أن يبقوا فى كندا ضمن المستعمرين ولكن تقاليدهم جعلتهم يفضلون العودة إلى بلادهم والعمل فى الفرق السويسرية تحت العلم الهولندى .

وفى سنة ١٨٤٨ قررت سويسرا منع استخدام أبنائها كجنود مرتزقة فى البلاد الأخرى ، فلم يبق منهم فى الجيوش الأجنبية إلا عدد قليل فى الفرقة الأجنبية الفرنسية The French Foreign Lagion والحرس البابوى .

الفصل الأول

الحرس السويسرى

في فرنسا :

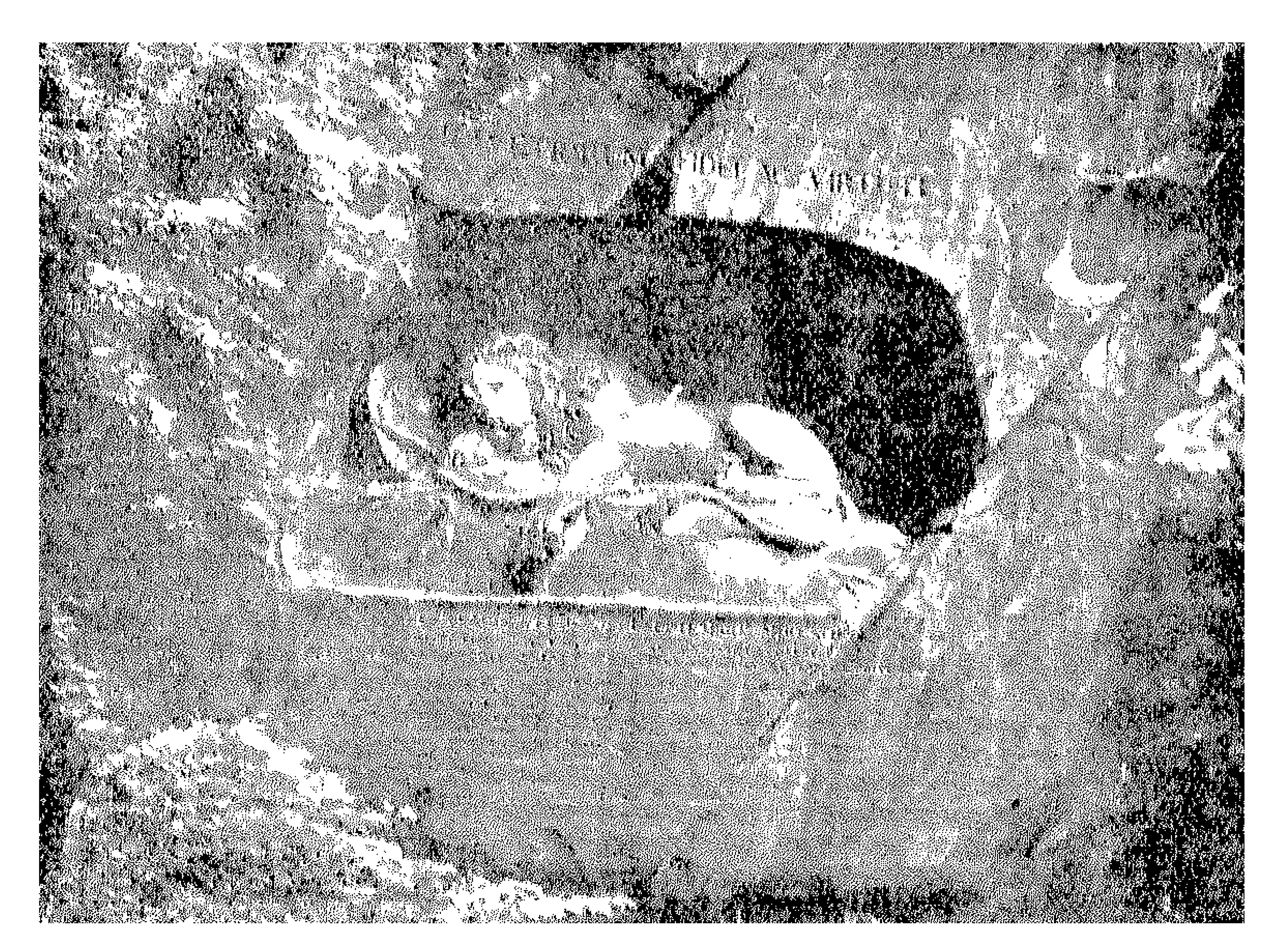
ففى فرنسا بدأ الحرس السويسرى كجزء من المشاة المرتزقة منذ أيام لويس الحادى عشر (١٤٧٤) وفرنسوا الأول، وكذلك فى الحروب الدينية إذ أدمجت تلك الطائفة كهيئة ثابتة فى الحرس الملكى بواسطة هنرى الرابع سنة ١٥٨٩ مكافأة لهم على حسن بلائهم فى موقعة أركين Arques واستمروا فى هذا المركز الرفيع، يؤدون واجبهم سواء كجنود مرتزقة أو كحرس خاص للملك على أتم وجه حتى جاءت الثورة الفرنسية فكانوا مرة أخرى مثال الولاء للملك والشجاعة والاستبسال فى تأدية واجبهم نحوه. ولما كانوا غرباء فى فرنسا فإنهم لم يتأثروا بالميل أو الكراهية للحركة الدستورية الأمر الذى ترتب عليه حل فرق الحرس الملكى الأخرى التى كان رجالها من الفرنسيين ولعل ذلك هو الذى حدا بالفرنسيين إلى عدهم أعداء للنظام الجديد. فلم يتأثروا نحوهم بعاطفة ما عندما هبت ريح الثورة على باريس فى يوم ١٠ أغسطس

سنة ١٧٩٢ نتيجة لبلاغ برنسويك[١] Brunswick's Manifest فتحرك الثوار وهاجموا التويلرى حوالى التاسعة صباحاً وفى العاشرة غادر الملك والاسرة الملكية القصر للاحتماء بالجمعية التشريعية ، حيث وضعوا فى حجرة صغيرة خلف كرسى رئيس المجلس وهناك مكثوا أكثر من ثلاثين ساعة ، تاركين خلفهم الجنود الموكلين بحراسة القصر فى صراع عنيف مع جميع الثوار[٢] وعلى الأغم من أن الملك عندما سمع الطلقات الأولى أرسل إلى الحرس أمراً بإيقاف إطلاق النار فان الضابط الذى حمل الأمر تردد فى إصداره طالما كانت هناك فرصة للنصر، وفى هذا الصراع أبلى الحرس السويسرى بلاء مبينا كما أنهم كانوا فريسة

(١) أصدر هذا البلاغ دوق برنسويك قائد جيوش التحالف الدولى الأولى ضد فرنسا فى ١١ يوليه سنة ١٧٩٢ وقد جاء فى صورة أمر للفرنسيين أن يردوا للملك لويس السادس عشر حريته الكاملة فى العمل وأن يذعنوا لأوامر امبراطور النمسا وملك بروسيا وعلاوة على ذلك فقد صرح بعد جنود الحرس الوطنى الذين يعترضون تقدم الحلفاء مجرمين ينالون عقاب الثائرين وخلص إلى الوعيد والتهديد بتخريب مدينة باريس تخريبا تاما إذا أصاب الملك والملكة والأسرة المالكة أى ضرر من أى نوع أو إذا لم يمنحوا الحرية على الفور .

(٢) ولعله من الطريف أن نذكر هنا أن مأساة الحرس السويسرى فى اليوم المذكور وقعت على مرأى من نابليون بونابرت وهو إذ ذاك أحد ضباط المدفعية الفرنسية فما كان منه إلا أن تتبع حوادثها باهتمام وأفاد منهـا بعضا من الدروس التى كانت فيما بعد ذات قيمة جليلة له فى أعماله .

ذلك اليوم المفزع فانهم دافعوا عن القصر حتى نفذت ذخيرتهم وعندما صدر الأمر لهم بالتقهقر انسحبوا رويدا رويدا ولكنهم ما لبثوا أن غلبتهم كثرة المهاجمين العددية فخر صريعا من السويسريين نحو ثمانمائة وهكذا يكون يوم٠ أغسطس سنة٩٢ ١ يوم فخر للحرس السويسرى كما أنه يوم انتهائه من خدمة ملوك فرنسا ولقد شاءت العناية الإلهية تخليد هذا الفخر فأقيم تمثال أسد



تمثال أسد لوسرن

لوسرن الذى نحت من الحجر الحى [١] فى جزء غائر من تل لوسرن

(١) بالانجليزية Living Stoue إصطلاح للأحجار التى تنحت فى مواطن وجودها دون نقلها أو قطعها من محاجرها أو أماكن وجودها ومثل هذا تمثال أبى الهول .

قام بعمله فنان سويسرى يدعى أهورن Ahorn وقام بعمل النموذج الأصلى مثال هولندى يدعى البرت ثروالدن Albert Bertal Thorwalden سنة ١٧٧٠ — ١٨٤٤ تخليداً للمأساة التى ذهب ضحيتها ٢٦ ضابطاو ٧٦٠ جنديا و التمثال طوله ٢١ قدما وارتفاعه ١٨ قدما وهو يصور الأسد رابضا وقد انغرست فى جسده حربة مكسورة وهو فى النزع الأخير غير أنه يأبى إلا أن يظل قابضا على درع يحمل شعار الملكية وعبارة لاتينية معناها (لتخليد ذكرى الوفاء والفضيلة عند السويسريين) وقد ذكرت تحت تلك العبارة أسماء الضباط السويسريين .

فى خدمة البابوات :

يرجع استخدام هذا الحرس إلى سنة ١٥٠٦ عندما اشتهر المشاة السويسريين فى أنحاء العالم الأوربى بشجاعتهم. فقد أنشأ البابا يوليوس الثانى Julius قوة مسلحة من السويسريين الكاثوليك لحراسته وهذه القوة هى واحدة من أربع قوات تقوم بحراسة البابا الآن بعد أن كان له قبل سنة ١٨٧٠ جيش يقوم بالدفاع عنه .

وهذا الحرس أهم تلك القوات وأجملها منظرا وأخلدها ذكرا[١] .

وقد أثبت الحرس السويسرى جدارة فى القيام بالمسئولية المعهودة إليه فى عهد البابا كلمنت السابع سنة ١٥١٧ ، أى بعد إنشائه بقليل ، عندما اشتد النزاع بين البابا وبين الامبراطور شارل الخامس (شارلكان ، وهو نفسه Charles شارل الأول الأسبانى) إذ اجتاح The Constable of Bourbon حاكم بربون مدينة روما وهاجم الفاتيكان بجنوده المرتزقة وقد صمد الحرس (وكان عدده يومئذ مائتين) فى الدفاع عن مدخل الفاتيكان دفاعا مجيدا حتى استطاع البابا الوصول إلى قلعة سنت انجيلو[٢] .

---

(١) يشترط فيمن يقترع لتلك الفرقة أن يكون سويسريا كاثوليكيا ، ومن زواج شرعى ، أعزبا لا يتجاوز الخامسة والعشرين ، ولا يقل طوله عن خمسة أقدام وثمانية بوصات ، وألا توجد به أية عيوب جسمانية ، وأن يكون بادى الصحة كامل المواهب العقلية . وعدده الآن مائة وهم يقترعون من الكانتونات الكاثوليكية بسويسرا . ويقال أن ميشيل أنجلو هو الذى وضع تصميم زيهم .

(٢) وهى قلعة قديمة تتصل بقصر الفاتيكان بطريق سرى طويل ، وتشرف على نهر التيبر ، وكان يحتمى فيها البابا إذا تعرض لخطر . وتلك القلعة بها مسكن للبابا ، وغرف الجند ، وسجون غائرة فى الصخر ومخازن للزيت ، كان يغلى بها ليصب على الأعداء ، بناها الامبراطور هادريان الرومانى لتكون قبرا له ولكنها حولت فيما بعد إلى حصن منيع .

المنيعة Castel Saint Angelo ولكن وبعد أن فنى الحرس عن آخره تمكن الغزاة من أخذ البابا أسيراً .



الحرس البابوى السويسرى

ولعل هذا الحرس هو الحرس الوحيد فى العالم الذى يتولى حماية شخصية لا يتبعها من الناحية السياسية .

في نابلي :

لا يعرف بالضبط مبدأ استخدام ملوك نابلي للسويسريين في جيشهم أو حرسهم غير أنه يرجح انهم استخدموهم بعد ظهورهم في الحرس البابوي .

وقد ظلوا في خدمة ملوك نابلي حتى ٧ يونيه سنة ١٨٥٩ وحدث أن تمرد جزء من الحرس السويسري في عهد فرنسيس الثاني بن فردينا ند الثاني الملقب « بومبا Bomba » ، ملك نابلي وعلى حين هدأ الملك روعهم عندما وعد بازالة ما يشكون منه جمع الجنرال نتزياتي Nunziante جنودا آخرين وأحاط بالمتمردين ورماهم بالرصاص حتى ماتوا وانتهت هذه الحادثة بحل جميع الحرس السويسري الذي كان دعامة أسرة البربون في نابلي .

الفصل الثانى

سويسرا وفرنسا

قدمنا أن الاتحاد السويسرى دخل مع فرنسا فى أول محالفة عام ١٤٥٢ ، وأنه بسبب هذا التحالف ، وقع فى الحرب البرجندية ، التى أظهر فيها ما ذكرناه من بطولة واستبسال ، وظل الاتحاد فى نمو وتقدم ، وامتدت سطوته فى أوائل القرن السادس عشر فى جنوب الألب ، بفضل ما أوجده لويس الحادى عشر (١٤٧٤) من سنة ، جرى عليها من جاء بعده من ملوك فرنسا ، من حيث منح معاشات وامتيازات أرضية للسويسريين ، كى يضمنوا لأنفسهم العدد الكافى من السويسريين المخلصين البواسل فى الجيش الفرنسى وهذا اعتراف صريح ببسالة السويسريين وشجاعتهم وإخلاصهم فى تأدية الواجب ، وأن يكن ذلك العمل قد جر على السويسريين مشاكل جمة ، انتهت بضم اقليم الفاليز وعصبة ريتا « Raetia » الثلاثية ودير ومدينة جاليز ، وهذه المغانم كانت على حساب فرنسا ، التى وعدت الاتحاد بمعاشات كبيرة لرجاله الذين يخدمون فى الجيش

الفرنسى ، ثم اتجهت هذه الميزة عام ١٥٢٠ ؛ فأصبح لملك فرنسا الحق فى أن يجند بموافقة الاتحاد عددا من السويسريين يتراوح بين ٦٠٠٠ ، ١٦٠٠٠ بأجور ملائمة كما زيدت معاشاتهم ، ولقد كان ذلك بداية تدخل فرنسا فى الشئون السويسرية .

سويسرا والاصلاح الدينى

اكتوت سويسرا كغيرها من البلاد الأوربية بنار حركة الإصلاح الدينى ، عندما حاولت ولاياتها التخلص من سيطرة البابوات الروحية ، على نحو ما فعلت بإزاء الإمبراطور فى السلطة الزمنية ، عندما ظهر أليرك زونجلى « Ulrich Zwingli » على رأس حركة زيورخ عام ١٥١٨ يبشر بالروح الانسانية « Humanism » متأثرا بالآداب القديمة ومعترضا أشد الاعتراض على التحالف مع فرنسا ونظم المعاشات والارتزاق ، لأنه شهد شرور ذلك بعينى رأسه عندما كان يعمل كقسيس مع الجنود الميلانية. وكان يعتقد فى قوة الدولة كواسطة فى تنفيذ التغييرات الدينية ، التى كان يؤمن بهـــا مثل تحويل المراكز الدينية « Canonaries » الى أستاذيات ولقد استطاع بقوة تأثيره أن

يحصل على تأييد زيورخ ، التى لم تلبث أن دخلت فى نزاع هى وبرن وبعض الولايات التى انضمت اليها ضد بقية الولايات الأخرى واستمر هذا النزاع فترة طويلة من الزمن انتهت بهزيمة جنود زيورخ وحليفاتها هزيمة تامة ، واعترف مرة أخرى فى الصلح الذى تلا هذه الهزيمة بالمساواة التامة بين كافة أعضاء الاتحاد ، ولقد شمل هذا الاعتراف الاقليات الكاثوليكية ، التى أصبحت تتمتع بحرية العبادة وبهذا تكون سويسرا قد كفلت حقوق الأقليات ضد الكثرة ولكن هذا لا يطمس حقيقة انقسام الشعب السويسرى إلى شعبتين من الناحية الدينية وهما الشعبة الكاثوليكية والافنجيليكانية «Evangelican»

وعندما هبت الكنيسة الكاثوليكية تراجع نفسها ، وتطهر أساليبها قامت حركة الاصلاح التى تعرف فى التاريخ بحركة الاصلاح الكاثوليكى «Counter-reformation» وأصاب سويسرا بعض شرورها . فقد نهضت ولاياتها للدعاية للدين « الحق » (الكاثوليكية) فى دوائرها ، ومعاقبة كل خارج عليها ، ومعاونة بعضها بعضا اذا عدا على احداها عدو خارجى وهكذا تجزأ

الاتحاد إلى معسكرين أثرا بدرجة كبيرة فى تقدمه وأصلح الأمر أخيرا بوفاق بادن عام ١٦٣٢ ، الذى تقرر به حل الخلافات الدينية فى الأقاليم المشتركة لا عن طريق أغلبية السكانتونات ، ولكن عن طريق المناقشات الودية ، أو عن طريق التحكيم . وهذا تطبيق منطقى للمساواة الدينية .

الفصل الثالث

تدخل فرنسا فى شئون سويسرا

عاش الاتحاد طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر فى تبعية ظاهرة لفرنسا فى الغالب، فهذه زيورخ ترتبط لأول مرة بفرنسا عام ١٦١٤ بمعاهدة يتم تجديدها عام ١٦٦٣، وترد فيها ترتيبات خاصة بشأن الجنود المرتزقة الذين كانوا يعملون فى خدمة ملك فرنسا، مع تعهد هذا الملك بوقوفه موقف الحياد إذا إستعرت نار حرب أهلية داخل الاتحاد.

وكان لزاما على الاتحاد أن يقف موقف المتفرج من لويس الرابع عشر عندما ضم إلى فرنسا بالقوة أقاليم الالزاس وفرانش كومتيه Franche Comte واستراسبورج فى الفترة بين ١٦٤٨، ١٦٨١ وعندما اندلعت الحرب الدينية فى أوربا نتيجة لحركة الإصلاح الدينى الكاثوليكى وتحول لويس إلى اضطهاد البروتستنت مال أعضاء الاتحاد البروتستنيين إلى الخدمة فى الجيش الهولندى وانحازوا إلى بيت شالون أورنج Chalon-Orange الوريث الشرعى لفرع لونجفيل Longueville فى ولاية نيوشاتل

عام ١٧٠٧ ضد الفرنسيين ، الذين ادعوا الحق فى أملاك هذه الأسرة عن طريق الوراثة أو الوصية .

ولكن أعضاء الاتحاد من الكاثوليك قرروا أن ينضموا إلى فرنسا نكاية فى البرتستنتية ، وانتقاما لهزيمتهم السابقة على هذا التحول من جانب البروتستنت ، فوافقوا على تجديد معاهدة الإمتيازات (المعاشات . . . الخ) عام ١٧١٥ فى مقابل قيام فرنسا بضمان حرياتهم ، وإعطائها الحق الكامل فى التدخل فى حالة العدوان عليهم من الداخل أو الخارج ، سواء أكان ذلك التدخل بالنصح أم بالسيف ، ووعدت فرنسا فوق ذلك أن تساعد حلفاءها من الكاثوليك فى الاتحاد على استرداد ما فقدوه أثر الهزيمة المشار إليها وهذا فى جملته لا يخرج عن التنازل عن الاستقلال السويسرى فلا جرم إذن أن يقوم البروتستنت بالمعارضة الشديدة ومقاومة فرنسا فى السر والعلن ، حتى زال ذلك الكابوس عن الاتحاد عام ١٧٧٧ ، واستبدل به التحالف الرباعى ، الذى بدا فيه واضحاً استقلال سويسرا وسيادتها وبذلك تكون فرنسا قد نجحت فى الحلول محل الامبراطورية فى الاتحاد السويسرى ، مع ملاحظة الفارق

من ناحية أن كافة حقوق فرنسا كانت محققة عملياً ، ومعترفا بها وديا ، والفضل فى ذلك راجع إلى أن تدخل فرنسا فى الشئون السويسرية كان ،واستمر مختلطا بحركة الاصلاح والانقسامات الدينية ، التى كانت سببا فى تعطيل قيام الحكومة المركزية ، والتى ظلت الخلافات بسببها متحكمة حتى عام ١٧٩٨ ذلك العام الذى كسب فيه البروتستنت نصراً محققا ، وكان من نتيجة هذا النصر أن أنحسم النزاع الداخلى وتثبت حق المساواة الدينية فى كافة الولايات السويسرية .

ويلاحظ أن الحكومة المركزية كانت ضعيفة وأن الاتحاد لم يكن إلى هذا التاريخ سوى مجموعة من الخلايا المنفصلة ومن عجب حقا أنه بقى ولم يندثر وهنا وضعفا ولعل أكبر ظاهرة سياسية فى الاتحاد السويسرى فى هذين القرنين هى نمو طبقة أرستقراطية ، لا تمثل كبار الملاك ولا تمثل الأسر النبيلة ، وإنما تمثل طبقة صغيرة تركزت فى أيدى أفرادها سلطة التصويت وقوة الحكم وهذا واضح بصفة خاصة فى برن ولوسرن وفريبرج ولوتير حيث كانت الديمقراطية البدائية منعدمة على نحو ما كان فى اقاليم الغابات الثلاثة أو على نحو ما كان فى حكومة النقابات

بزيورخ وبال وشافهوزن وقد كانت هذه الطبقة نتيجة لرفض قبول مواطنين جدد بتأثير مسألة مساعدة الفقراء Poor relief عندما قضى على الأديرة ، وبهذا لم يكن للغرباء Outsiders حقوق سياسية مهما طال مكثهم بالمكان على حين صارت مميزات المواطن وراثية وعرفت هذه الطبقة بطبقة النبلاء المحدثين Patriarchate

الثورة الفرنسية وأثرها فى الاتحاد :

الثورة الفرنسية حركة قام بها الشعب الفرنسى لايجاد التوازن بين طبقات المجتمع وهى بهذا المعنى حركة طبيعية لاستمرار المجتمع الفرنسى فى تقدمه الذى عطله تعثر الملكية المستبدة المطلقة فى قيادها له وانحيازها انحيازاً كليا إلى طبقتى الأشراف ورجال الدين وإشباع رغبة ملوكها فى السيطرة والاستمتاع على حساب الطبقة الثالثة أى طبقة الشعب ، على نحو ما كان سائدا فى العصور الوسطى وعهد الاقطاع ، بعد أن زال ما كان للأشراف ورجال الدين من أعمال تتكافأ مع ما كان لهم من امتيازات .

ثار بركان هذه الثورة عام ١٧٨٩ ، وابتدأ قوياً عنيفا اهتزت أمامه قواعد الملكية وارتجفت له قلوب الأشراف

ورجال الدين على حد سواء، وتقررت فى مبدئه «حقوق الانسان» الوثيقة الانسانية الخالدة، التى دعمت مبادىء الحرية والمساواة والإخاء، الممثلة إلى وقتنا هذا فى العلم الفرنسى.

ولقد تأثرت الأمم المجاورة لفرنسا بقذائفها، وكانت أكثر تلك الأمم تأثراً الأمة السويسرية؛ لاتصالها الوثيق بفرنسا مدة طويلة ولوجود كثيرين من لفظهم الاتحاد السويسرى بباريس، فعمدوا إلى نشر مبادىء الثورة فى غرب الاتحاد وإثارة القلاقل فى أجزائه، فقامت ثورات فى أقاليم مختلفة، بسبب استبداد الحكام، وتوتر أعصاب الأهالى لما أصاب الحرس السويسرى بقصر التويلرى. ولما لم يكن فى مقدور الحكام السويسريين استساغة المبادىء الجديدة، فقد لجأوا إلى استعمال القوة لقمع الثورات وإرجاع الحال إلى ما كانت عليه، ولقد نجحوا فى ذلك إلى حد كبير، فلم يبق من الأقاليم الثائرة إلا إقليم واحد ضمه بونابرت إلى جمهورية السلبين[1] عام ١٧٩٧.

---

(١) وهى الجمهورية التى كونها نابليون بونابرت فى شمال إيطاليا بعد انتصاره على جيوش النمسا بمقتضى صلح كمبوفورميو سنة ١٧٩٧.

وعلى الرغم مما كان يهدد الاتحاد من خطر الانهيار ، فقد انشغل بالنزاعات الحزبية ولم يفكر فيما يحتمل أن يصيبه من غزو مفاجىء من ناحية فرنسا ، التى كانت حكومتها تفكر فى الوصول إلى حصون تعصمها من هجمات النمسا ، والتى كانت تبغى أن تستولى على كنوز برن[1] لمسيس حاجة هذه الحكومة إلى المال ، فتذرعت بما طلبه إليها نفر من السويسريين الحاقدين على الحكومات الأوليجاركية فى داخل الاتحاد لحماية الحرية فى اقليم فود « Vaud » وفقا لتعهد فرنسا بذلك عام ١٥٦٥ ، وطبقا لما صرحت به جمعية فرنسا التشريعية من استعدادها لمساعدة الشعوب المهضومة على استرداد حرياتها ، وكذلك سيرت حكومة الادارة جيوشها إلى سويسرا ، فقضت على مقاومتها ، خاصة وأن الثورة كانت تتملك ناصية أقاليمها ، فانحل بذلك الاتحاد القديم ، وشكلت حكومة الادارة حكومة جديدة للولايات السويسرية أطلقت عليها الجمهورية الهلفيتية « Helvetic Republic » .

---

(١) وكانت هذه الكنوز قد صورتها الإشاعات تصويرا خياليا .

وأهم ما يعنينا من هـذه الجمهورية هو ما ارتـكزت عليه من تقسيمات إدارية ونظم .

أما ناحية الادارة فتتمثل فى تقسيم الاتحـاد إلى ثلاثة وعشرين قسما إداريا « Cantons » وأما من ناحية النظم فقـد أقيمت لهـا حكومة مركزية مقرها لوسرن ، وقوامها مجلس شيوخ ومجلس أعظم ، ينتخب أعضاؤهما وعلى رأسهما هيئة تنفيذية مكونة من خمسة مديرين تنتخبهم الهيئة التشريعية ، كما أقيمت لهذه الجمهورية هيئة قضائية عليا ، وأصبح لـكل فرد فى الثلاثة والعشرين قسما حق الانتساب إلى القومية السويسرية كما أصبح له الحق المطلق فى أن يقيم حيث يطيب له المقام ، فى أى جزء من أجزاء الاتحاد . وهكذا يصير الاتحاد ، بهـذا التنظيم ، لأول مرة فى تاريخ سويسرا دولة ، ويلاحظ عليه أن التغيير كان فجائيا وبدرجة كبيرة لا تضمن له طول البقاء ، فهو لم يقدر روح العصبية المحلية «Local Patriotism» ولم يقدر كـذلك نفور السويسريين من الخنوع والخضوع لأية دولة كائنة ما كانت وذلك ظاهر من أن الجمهورية الهلفيتية ، التى كان ظاهر أمرها أنها انتخابية جمهورية خاضعة لفرنسا ، إذ كان

المدبرون يعينون عمليا من باريس وبسرعة تحولت أراضيها إلى مسرح للصراع بين فرنسا والنمسا ، مع ما كان الفرنسيون يأتونه من معاملة سيئة للأهالى ، كأن بلادهم قد فتحت عنوة. ذلك وغيره من الأعمال التى قررت مصير الادارة الهلفيتية ، فلم تكد حكومة الادارة فى فرنسا تهوى ، حتى هوت معها إدارة الجمهورية الهلفيتية فى سويسرا وحلت محلها لجنة تنفيذية فى يناير سنة ١٨٠٠ .

الفصل الرابع

نابليون وسويسرا

قدمنا أن مشروع الجمهورية الهلفيتية كان مفيداً لإنه ساعد على تركز الحكومة فى سويسرا ومع ذلك فهو لم يوفق إلى الحل الوسط المعقول ومن أجل ذلك قام نزاع عنيف بين طائفتين من أهل سويسرا ، طائفة الوحدة Unitary وطائفة الاتحاد Federalist فلما سحبت فرنسا جنودها من سويسرا عام ١٨٠٢ على يد نابليون بونابرت تنفيذاً لشروط معاهدة أميان واستمالة للسويسريين خابت آمال الحكومة الهلفيتية ، ورجحت كلمة الاتحاديين وعندها تقدم نابليون للتوسط ، فدعا عشرة من زعماء ساسة سويسرا للتباحث فى الأمر فيما سمى لجنة استشارية Consulta وبعد مداولات أعلن نابليون أن سويسرا تفتقر إلى دستور اتحادى وحياد تضمنه فرنسا وفعلا وضع عام ١٨٠٣ مع اللجنة الاستشارية قانون الوساطة Act of Mediation الذى فرض على سويسرا قبوله قسرا وأهمية هذا القانون ترجع إلى أنه وجه سويسرا توجيها جديدا لا يزال أثره ملحوظا فى دستورها إلى وقتنا هذا فقد :

١ — استعملت كلمة سويسرا لأول مرة اسماً للاتحاد .

٢ — تكون الاتحاد من الثلاث عشرة ولاية الأصلية، وزيد عليها اثنتين كانت من قبل تعرف بالشريكة Associate وأربعة كانت من قبل محتلة، فأصبح عدد ولايات الاتحاد بذلك تسع عشرة ولاية.

٣ — صار لكل ولاية يزيد عدد سكانها على مائة ألف صوتان فى مجلس الديت Diet وصوت واحد لما عدا ذلك .

٤ — أصبح كل عضو فى الديت حرا فى التصويت ، مع التزامه حدود التعليمات والأوامر .

٥ — أعيدت المجالس الشعبية فى الكانتونات الديمقراطية، وفى غيرها جعلت الحكومة من مجلس تشريعى وهيئة تنفيذية ينتخب أعضاؤها بشروط خاصة .

٦ — حرم على الولايات عقد المحالفات أيا كانت، خارجية أو داخلية .　　　٧ — قضى على الطبقات المتمازة .

ومع أن هذا التنظيم كان يناسب سويسرا وأهلها كثيراً إلا أنه كان معتمداً فى بقائه على نابليون وسيطرته فما كاد نابليون يسقط حتى انهار دستوره ونظامه فى سويسرا وهكذا يكون هذا الدستور وما كان له من مميزات قيمة قد حبط بسبب مصدره .

الفصل الخامس

سويسرا بعد مؤتمر فينا

دستور سنة ١٨١٥

كانت سويسرا فى عام ١٨١٥ اتحادا مفككا يتكون من اثنتين وعشرين دويلة أو كانتونا [1] وتختلف هذه الدويلات كثيرا فى شكل الحكومة فقليل منها ديمقراطية خالصة يجتمع أهلها برمتهم فى أوقات معينة، وغالباً ما يكون ذلك فى الخلاء أو المراعى، ليسنوا القوانين وينتخبوا الموظفين الذين يوكلون بتنفيذ هذه القوانين وهذه هى السنة فقط فى الكانتونات الصغيرة الفقيرة على حين أن حكومة الكانتونات الأخرى غير ديمقراطية ولكنها تمثيلية إذ تتركز القوة السياسية فى الواقع بيد جماعة من الأسر الهامة (النبلاء) فى بعضها وبيد أصحاب الأملاك فى البعض الآخر وبذلك تكون الحكومة فى غالبية

---

(١) انقسمت ثلاثة من هذه الكانتونات إلى انصاف كانتونات مكونة بذلك مجموعا بالغا خمسة وعشرين حكومة كانتونية ، ويتمتع كل نصف كانتون بكل ما تتمتع به الحكومة المحلية للكانتون الكامل من السيادة ، إلا أنه فى الحكومة الاتحادية لاتكون لها من المكانة إلا بقدر نصف ما لحكومة الكانتون الكامل .

الكانتونات غير ديمقراطية ، بل كانت تهيمن عليها الطبقات الممتازة وكانت الحكومة الرئيسية للاتحاد بحسب اتفاقية ١٨١٥ تتكون من مجمع Diet لم يزد فى الحقيقة على أن يكون مؤتمراً لسفراء ، لا يملكون التصويت إلا بحسب التعليمات التى تبعث بها إليهم الكانتونات التى يمثلونها ولما لم يكن لسويسرا عاصمة فى ذلك الوقت فقد كان المجمع (الديت) يعقد جلساته فى المدن الثلاثة الرئيسية ، برن وزيورخ ولوسرن على التعاقب .

أهمية الكانتونات : وعلى ذلك فالنظم السويسرية كانت آنئذ تميل بكلياتها ناحية الكانتونات فجعلتها أكبر أهمية من من الاتحاد ، ولعل ذلك هو النتيجة الطبيعية لخمسة قرون من التطور التاريخى للبلاد السويسرية ، إذا استثنينا فترة قصيرة كانت فيها سويسرا خاضعة للنفوذ الفرنسى على عهد حكومتى الادارة ونابليون. وفى ظل اتفاق ١٨١٥ احتفظت الكانتونات بكافة الشئون التى لم تمنح للديت صراحة . وبهذا كان لكل كانتون نظامه الخاص بالبريد ، ونقده الخاص به ، بحيث كان الفرد مواطنا فى كانتون معين لا مواطنا سويسريا فإذا رحل من كانتون إلى كانتون آخر غدا رجلا بلا وطن وكذلك كانت

الكانتونات تعقد المحالفات التجارية مع الدول الخارجية وعلاوة على هذا فان اتفاق ١٨٠٥ لم ينص مطلقاً على حرية الصحافة أو حرية الاجتماع أو حرية الدين ، وبذلك تكون هذه الأمور قد تركت للكانتونات لتتصرف فيها بما ترى ولقد أدى ذلك إلى التفارق الشديد بين الكانتونات فى وجهة النظر ، وكذلك كان الحال فى شئون التربية والتعليم ، فقد كان الأمر فيها متروكا للكانتونات التى كان أغلبها بعيداً عن الديمقراطية والحرية ، وهكذا يكون التناسق بين هذه الدويلات وتوحيدها نهائياً مهمة الحوادث والأيام المستقبلة .

الفصل السادس

عهد الانتعاش والبناء

اتبعت الكانتونات سياسة رجعية طوال الفترة بين ١٨١٥ و ١٨٣٠ وابتدأ بعدها ذلك العهد الذى ينعته السويسريون أنفسهم بفترة الانتعاش والبناء Era of Regeneration التى تحررت فيها دساتير كثير من الكانتونات من طابعها الرجعى ، ويممت شطر الحرية، فاعترفت بالحقوق السياسية والاجتماعية لطبقات لم تكن لها هذه الحقوق قبلا، وأخذت تطالب حثيثاً بالمساواة ولقد أحسنت حكومة الكانتونات صنعاً إذا أجابت مطالب الاقتراع العام وحرية الصحافة والمساواة القانونية، قبل التجاء الحانقين إلى القوة وقد تم فى الفترة بين ١٨٣٠ ، ١٨٤٨ ثلاثون مراجعة لدساتير الكانتونات .

ولقد كانت الطائفة التى نادت بدساتير كانتونية حرة هى نفسها التى طالبت بحكومة مركزية قوية ، غير أن هذا لم يتم تنفيذه بنفس السهولة التى تم بها تحرير الدساتير المحلية بل هو فى الحقيقة لم يتم إلا بعد إندلاع حرب أهلية قصيرة الأمد ،

وهى الحرب التى تعرف بحرب السندربند Sonderbund .

ولما كان للكانتونات حق الهيمنة على شئون الدين والتعليم فقد كسب الجزويت نفوذا كبيرا فى هذين الميدانين بالكانتونات السبع الكاثوليكية وكان طبيعيا أن يسعى الجزويت لمضاعفة هذا النفوذ عن طريق احتفاظ الكانتونات بهذه الحقوق والوقوف فى سبيل زيادة سلطة الحكومة المركزية . وغاظ موقف الجزويت هذا أنصار الديمقراطية الذين كانوا يعتنقون مبادىء حرية العقيدة وتحرير التعليم من القيود الدينية وجعله علمانيا صرفا وجعل الدولة غير دينية (علمانية) ، والذين كانوا يأملون فى تحقيق هذه الغايات عن طريق زيادة سلطة الحكومة المركزية لتصبح قادرة على فرض آرائها ومبادئها فى كافة أنحاء الاتحاد . ولقد سعى كل من جماعة الجزويت والحزب الراديكالى (أنصار الديمقراطية) لتحقيق أهدافهما المتعارضة ، فلم يأت عام ١٨٤٧ حتى كانت العواطف السياسية والدينية قد ثار ثائرها ، وبلغت حد الانفجار فتكونت من الكانتونات الكاثوليكية السبعة عصبة خاصة هى السندربند « Sonderbund » للدفاع عن المصالح التى عدتها مهددة ، مقدرة أن ليس فى عملها هذا عدوان

على أحد وإنما هو عمل دفاعى محض ضد أى اعتداء يراد به ولم يقف الراديكاليون جامدين بل استطاعوا بنشاطهم أن يظفروا من المجمع بقرار لحل العصبة. وكان رفض أعضاء العصبة تنفيذ هذا القرار شرارة الحرب عام ١٨٤٧ . ولم تكن هذه الحرب بدورها طويلة فقد انتهت فى ظرف ثلاثة أسابيع أحرزت فيها جنود الحكومة الاتحادية نصرا رخيصا ، فلم ترق فيها دماء كثيرة ، بفضل كثرة جنود الاتحاد وحسن تدريبها وقوة معداتها وبهذا حُلَّ السندربند ، وطرد الجزويت ، وتمهد السبيل للراديكاليين أن يمضوا فى تنفيذ مشروعهم المحبب إلى نفوسهم ، وهو تقوية الحكومة الاتحادية ، ولقد تحققت آمالهم بصدور دستور ١٨٤٨ الذى خلف دستور اتفاق ١٨١٥ ، ودستور ١٨٤٨ بما أدخل عليه من بعض التعديلات البسيطة ، وهو المعمول به إلى يومنا هذا ، والذى فى كنفه تحولت سويسرا إلى وحدة اتحادية حقة ، مشابهة فى كثير من الوجوه للولايات المتحدة الأمريكية وهكذا توارى مجمع السفراء « Diet of Ambassadors » وظهر بدلا منه مجلس تمثيلى ذو سلطات تشريعية واسعة .

وأصبحت الهيئة التشريعية للاتحاد تتكون من مجلسين أولهما المجلس الوطنى « National Council » وينتخب أعضاءه الشعب مباشرة بحساب عضو لكل ٢٠٫٠٠٠ سويسرى ، وثانيهما مجلس الولايات « Council of States » ويتكون من أعضاء بحساب عضوين عن كل كانتون (ولاية) ويلاحظ أنه فى المجلس الوطنى يتساوى السكان جميعا ، وفى مجلس الولايات تكون المساواة بين الكانتونات وبعد تشكيل المجلسين يجتمعان معا على هيئة مؤتمر لانتخاب محكمة الاتحاد وهى الهيئة القضائية ، ولجنة السبعة أو مجلس الاتحاد « The Federal Council » وهى الهيئة التنفيذية وتنتخب لجنة السبعة من بينها رئيسا يحمل لقب «رئيس الاتحاد السويسرى» ومع أن رئيس الاتحاد السويسرى يحمل هذا اللقب إلا أن سلطته ليست أوسع من سلطة أى واحد من زملائه الستة الآخرين .

ولقد رؤى أنه من الأفضل أن يكون للاتحاد عاصمة واحدة وعلى ذلك وقع الاختيار على برن « Bern » لامتياز موقعها بقربه من الحدود ، حيث تنتشر اللغتين الألمانية والفرنسية معا .

ولقد خول دستور ١٨٤٨ حكومة الاتحاد سلطات واسعة ، فأصبح لها حق الاشراف على السياسة الخارجية وتوجيهها ، وكذلك الحال فى الجيش والعوائد الجمركية ونظام البريد والعملة ، ومع هذا فقداحتفظت حكومات الكانتونات بسلطات كبيرة أيضا ، فقد بقى لها الحق فى سن القوانين المحلية الخاصة بالشئون المدنية والجنائية والمسائل الدينية والتعليمية .

ووضع الدستور الجديد موضع التنفيذ ، فإذا عصبة الولايات القديمة تنقلب إلى وحدة اتحادية قوية ، وإذا هو يخلق لأول مرة فى التاريخ الأمة السويسرية الصحيحة وهذا هو فى الحق نصر مبين للروح القومية ، وواحد من تلك الانتصارات التى شهدتها أوربا فى القرن التاسع عشر وفوق ذلك فهو نصر للقوة الدافعة الأخرى فى ذلك القرن ، قوة الروح الديمقراطية .

ولقد ترسمت سويسرا منذ ١٨٤٨ طريق التقدم السلمى ذلك الطريق الذى كان له أكبر نصيب من اهتمام العالم الخارجى ، ولم يكن هذا الاهتمام لتستدعيه الحوادث الخطيرة، ولا السياسية الخارجية ، لأن سويسرا لم تخرج منذ ذلك الوقت على سياسة

الحياد الدقيق ، ولكنه كان على النقيض من ذلك مركّزا فى ذلك التطور الثابت الكامل لبعض الأوضاع السياسية ، التى قد تكون ذات قيمة عظيمة لكافة البلاد ، التى تحكم نفسها بنفسها ، فان عملية وضع القوانين قد خطت فى سويسرا خطوات واسعة إلى الأمام ، حتى اكتملت لها الصفة الديمقراطية بما لا تضاهيها فيها بلاد أخرى فى أنحاء العالم ، ومن ثم أحقيتها بالتوضيح .

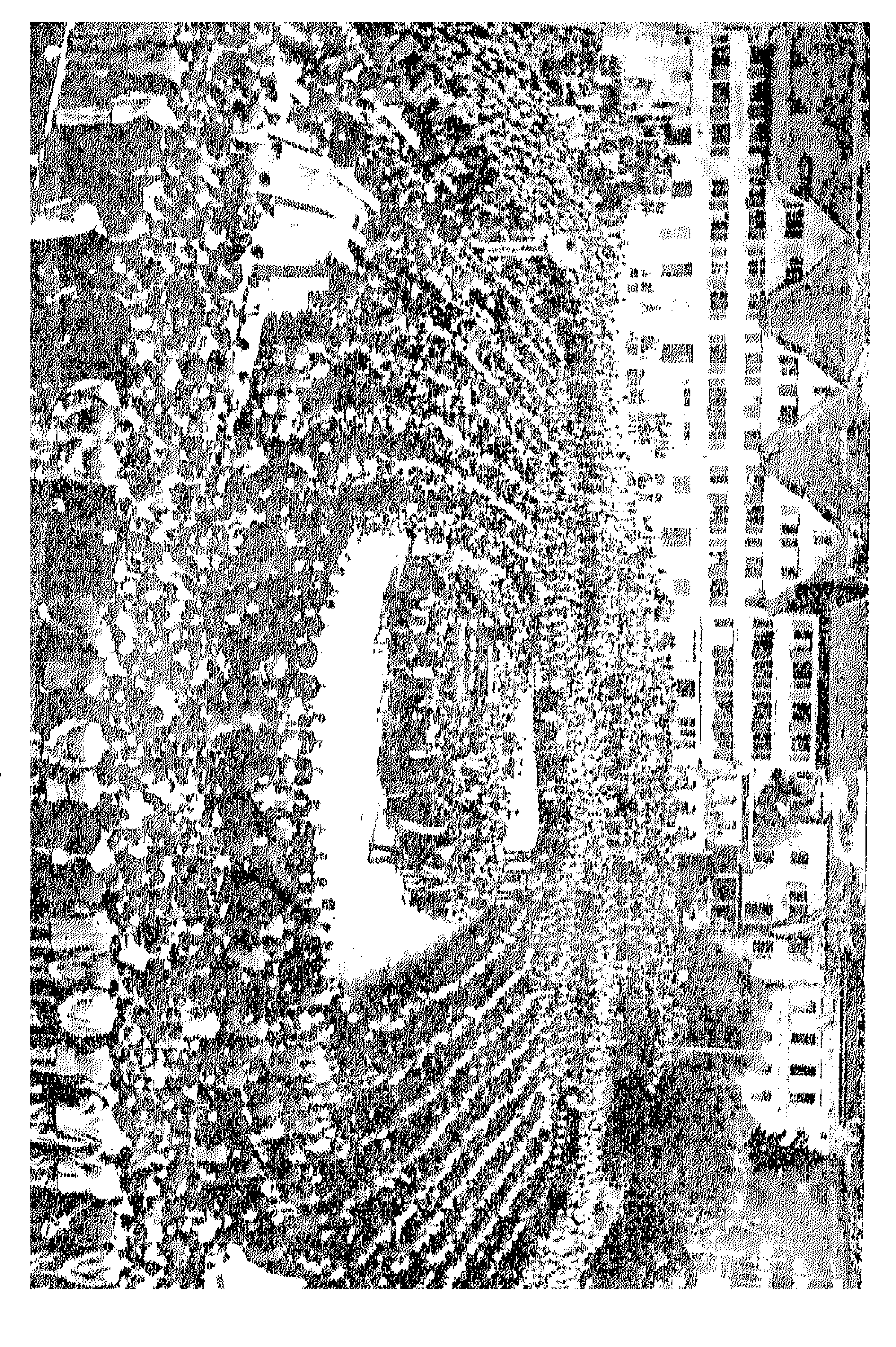
تجرى الأداة السياسية فى البلاد التى تسمى نفسها ديمقراطية على القاعدة التمثيلية ، أى الديمقراطية غير المباشرة ، بمعنى أن الناخبين ينتخبون عنهم ممثلين لهم يضطلعون بوضع القوانين التى يتم إقرارها دون عرضها على الناخبين أنفسهم للموافقة أو الرفض ، ولكن السويسريين قد اجتهدوا ونجحوا إلى حد كبير فى تمكين الناخبين أنفسهم من وضع القوانين عمليا بحيث لا يكونون مجرد ناخبين لنوابهم واضعو القوانين الحقيقيين ، وفى تطبيق مبادىء الديمقراطية بشكل دائم على كل نواحى الحياة الوطنية ولقد تم لهم ذلك بطرق شتى ، وكانت الكانتونات مهداً للتجارب أولا ، ومنها نفذت إلى الاتحاد ثانياً .

* * *

اللاندزجميند أو الكانتونات التشريعية
The Landesgemiende Cantons

كانت بعض الكانتونات الصغيرة من العصور السحيقة، ولا تزال إلى اليوم، ديمقراطيات قحة، فالناخبون يجتمعون معا فى زمن معين، وفى صعيد واحد. وغالبا ما يكون ذلك فى الخلاء، ليختاروا نوابهم، وليبدوا رأيهم فى القوانين برفع الأيدى، واليوم لا يزال فى سويسرا ستة من هذه الكانتونات، وهذه الحكومة المباشرة ميسورة لأن الكانتونات الستة صغيرة الحجم وقليلة عدد الأهالى، وهى من الضآلة بحيث لا يذهب الرجل إلى أبعد من خمسة عشر ميلا ليعطى صوته.

وهذه الحكومة المباشرة لا يمكن أن تكون عامة الانتشار ولذلك فان الكانتونات الأخرى ذات الحجم الكبير، وذات الأهالى الكثيرين، تنتخب ممثليها فى المجالس كما هو الحال فى انجلترا والولايات المتحدة الأمريكية، ومع ذلك فأن الناس فى هذه الكانتونات التمثيلية يهيمنون على ممثليهم بطريقة مفقودة فى كل من البلاد السالفة الذكر، ولكنها تجعل حكم الناس لأنفسهم بأنفسهم قريباً من الكمال كما يجرى فى الكانتونات الستة الصغيرة،



اجتماع الأهالى فى الاسكندرية

وذلك عن طريق ما يعرف بالاستفتاء Referendum وحق المبادأة Initiative ، وذلك أن أهالى الكانتونات التى تتمتع بهاتين الميزتين لا يجتمعون كتلة واحدة كما هو الحال فى الكانتونات التشريعية Landesgemeinde ليسنوا القوانين ولكنهم على النقيض من ذلك ينتخبون عنهم ممثلين فى المجالس التشريعية ، كما هو الحال فى البلاد الأخرى، وبذلك تكون الحكومة نيابية تمثيلية لا ديمقراطية. إلا أن قرارات الهيئة التشريعة لا تكون نهائية، بل قابلة للتغيير إذا اقتضى الأمر ذلك بواسطة هيئة تشريعة تالية، على أن القوانين التى تسنها هيئات الكانتونات التشريعة يجوز بل ينبغى أن تعرض على الأهالى للإستفتاء ، وللناس عندئذ أن يرفضوها أو يقروها ، وفى هذه الحالة يكون الأهالى بمعنى آخر مشرعين أو واضعين للقوانين، وتكون مجالسهم التشريعية التمثيلية بمثابة لجنة تحضير تساعدهم فى اقتراح المشروعات وتحضيرها.

هذا هو شأن الاستفتاء وموقف الناس عامة من المجالس التشريعية التمثيلية وموقف هذه منهم ، على حين أن دستور سويسرا يخول الناس كذلك حق المبادأة Initiative وهو حق لا علاقه له بعرض القوانين على الناس لبيان رأيهم فيها مصادقة



اجتماع عام للفلاحين قبيل عملية الانتخاب

أو رفضا ، ولكنه عملية عكسية للاستفتاء يكون الأهالى فيها مصدر سن القوانين الجديدة لا المجالس التشريعية ، وعلى هذا يكون الاستفتاء وقاية سلبية ، لأنه بمثابة تخويل الناس قوة الرفض The Veto Power على حين أن حق المبادأة Initiative ايجابى ، ابتكارى Originative ، بنائى ، وبمقتضى هاتين العمليتين تستطيع الديمقراطية أن تنشىء ما ترتضيه لنفسها من القوانين، وتكون إحداهما مكملة للأخرى، فأنهما لا يقضيان على المجالس التشريعية ، ولكنهما ييسران للناس السيطرة والاشراف متى أراد عدد كاف منهم مباشرة ذلك، ويوضح دستور كانتون زيورخ ذلك فيقول: « يباشر الأهالى سلطة وضع القوانين بمساعدة مجالس الدولة التشريعية » وبذلك يكون الناخبون هم المشرعون الأعلون لا المجالس التشريعية » ويكون الغرض من هاتين العمليتين — الاستفتاء وحق المبادأة — تكوين حكومة الشعب من الشعب وللشعب، ولهما أهمية بعيدة الأثر عند كافة من يريد أن يجعل الديمقراطية متطابقة نظريا وعمليا، وبواسطتهما أصبحت سويسرا أقرب إلى الديمقراطية من أى بلاد أخرى .

خاتمـــة

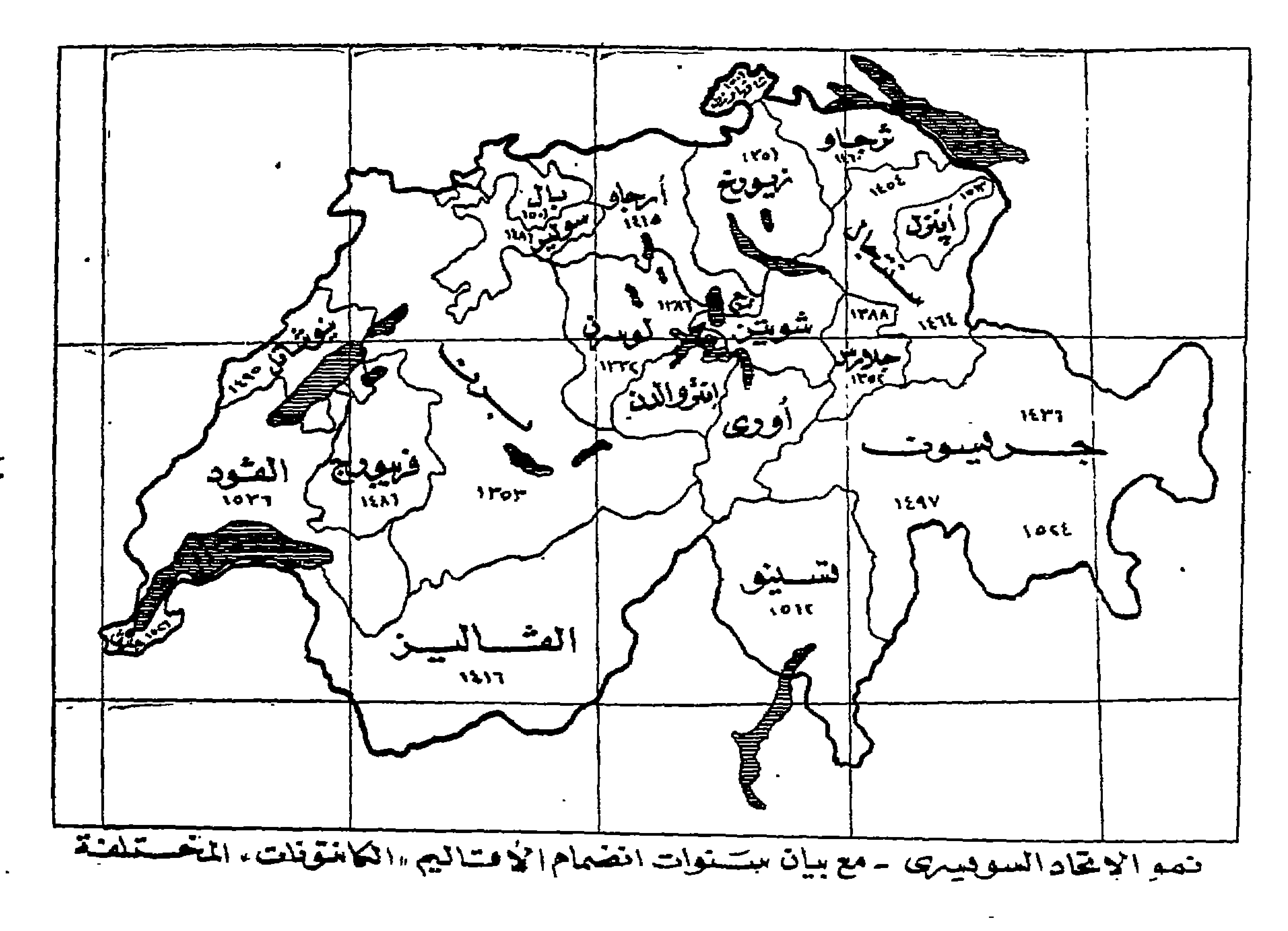
خطى السويسريون خطى واسعة نحو التقدم فى التعليم والصناعة وزاد عددهم أكثر من مليون نسمة منذ ١٨٥٠م ويبلغ عددهم الآن حوالى ثلاثة ملايين ونصف مليون نسمة غير متجانسة لغة أو ديناً أو عنصرا ، إذ يتكلم حوالى ٧١٪ منهم الألمانية وحوالى ٢١ ٪ الفرنسية وحوالى ٥ ٪ الإيطالية ، وأقليه منهم تتكلم لغة محلية غريبة يقال لها رومانش Roumansch.

على أن اللغة ليست فى الواقع عاملا مهما من عوامل الفرقة فى سويسرا كما كانت بالفعل فى النمسا والمجر وممالك البلقان ، ويحتمل أن يكون ذلك لانعدام المصلحة السياسية التى ترتبط بها . ذلك أن اللغة فى البلاد المذكورة سالفاً كانت ولا تزال معينة لعنصرية خاصة على أن حكوماتها العليا لم تعمل مطلقاً على مراعاة مصالح هذه العناصر الغريبة بعضها عن بعض بما يخلق منها وحدة مترابطه فى المصالح المشتركة ، بل عملت على النقيض من ذلك على تسويد العنصر الذى ينتمى اليه البيت الامبراطورى فى النمسا (آل هبسبرج) نخصت الألمان واللغة الألمانية بكل رعايتها مع

إهمال الصقالبة والمجر والطليان من رعاياها ، وأحلتهم المرتبة الثانية من اهتمامها ، فكان لزاما على العناصر التى لا تتكلم الألمانية فى هذه البلاد أن تسعى سعيا حثيثا متواصلا لحماية مصالحها الذاتية ضد الحكومة العليا التى عدها القوم عدوا شخصيا لهم ولمصالحهم ، ا لم يسمح مطلقاً بالاندماج التام فى وحدة عامة قوامها المصالح ، وزاد من حدة النعرة الجنسية واللغوية والدينية فيها ، وانتهى بها إلى الفرقة والتقسيم. وذلك كله على عكس ما حدث فى سويسرا فان اللغة لم تحل البتة دون التفاهم والتعاون والتآزر لحماية المصالح المشتركة ، بل أن هذا التفاهم والتعاون والتآزر لم يتأثر بالانقسام الدينى بعد ظهور حركة الاصلاح إلا سطحيا، وسرعان ما عملت كلها عملها فى ايجاد التسوية التى ارتاحت لها كل أجزاء سويسرا. ولقد عملت حكومة الاتحاد منذ ١٨٤٨ على أسس قوت كثيرا من روح القومية السويسرية ، وخدمت المصالح العامة خدمات جوهرية فأطمأن لها الجميع ، واعتز الكل بقوميتهم فراحوا يعملون فى السر والعلن على رخائهم أفرادا أو مجموعات بروح سلمية عالية كانت مضرب الأمثال فى كافة أنحاء العالم ، واعترفت الدول كلها لسويسرا بالحياد المطلق وضمنت لها هذا

الحياد، وكان ذلك مدعاة لتفرغها حكومة وشعبا إلى الانصراف للأعمال النافعة والاستفادة من كل ما وهبته الطبيعة لسويسرا من جمال مناظر وقوى مائية وغيره لتوفير السعادة والرخاء لكافة أفرادها .

ولقد كانت سويسرا بعد الحرب العالمية الأولى مقراً لعصبة الأمم وفروعها المختلفة وبذلك كانت قبلة الناس فى استجلاء حركات السلام وسائر نواحى النشاط الانسانى لمكافحة معوقات الرقى والتقدم بروح تعاونية صادقة .



نمو الاتحاد السويسرى - مع بيان سنوات انضمام الأقاليم "الكانتونات" المختلفة

الخطأ والصواب

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب	صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٢٢	١٢	وتحتلف	وتختلف	١٠٢	٦	»	»
٢٣	٧	البورغانديون	البرغنديون	١٠٤	١٣	بريجيه	برنجيه
٢٣	١٢	وإنه فى	وفى	١٠٥	١٤	يضعرون	يصعرون
٢٤	١٦	الوويسرية	السويسرية	١٠٦	٥	روزنبرج	روز برج
٣٧	٣	لامريه	لامرية	١١٦	١١	مسلولا	مسلول
٤٩	٢	سافيه	ساقيه	١١٧	٦	المخليفة	الخليفة
٥٠	٥	بالشعوب	بالشعور	١١٨	٥	الأ	ألا
٥٥	١٥	أهالمهما	أهاليها	١١٨	١٦	قه	قد
٦٢	٦	والغلاظ	والغلاظة	١٣٦	٨	مورجازتن	مورجارتن
٦٤	٦	ولم	لم	١٤٧	١١	واستعلمت	واستقلت
٧٣	١٦	طواعيه	طواعية	١٥١	١٣	أعوان.	أعوانا
٧٥		تذكار الاحتماع الروتلى	تذكارا لاجتماع روتلى	١٥٦	٥	الاساره	الاشارة
٧٦	١٢	عند	عن	١٦٨	١٨	الاتحا	الاتحاد
٨٤	٧	جمع	جميع	١٦٩	٥	جنيفا	جنيف
٨٤	١١	غيرة	غيره	١٧٣	٧	الاعم	الرغم
٨٤	١٧	ن	أن	١٧٣	١١	الأولى	الأول
٨٦	١٢	ورآى	ورأى	١٧٤	٤	.	١٠
٩٠	٤	شاهدوا	شاهد	١٧٥	٢	البرت روالدن	البرت رنال ترو الدن
٩٠	٤	يستعجلون	يستعجل				
٩٧	١٢	مستجدبة	مستجدية	١٩٥	٢	عرو	عهد
١٠٢	١٧	روزنبرج	روز برج				

